الدكتور محمد فتوح أحمد

النثر الكتابي

في العصر الأموي

١٩٨٩
الناشر
مكتبة الشباب
٢٦ شارع اسماعيل سري بالمنيرة
ت ٣٥٥١٨٣٥

بسم الله الرحمن الرحيم

النثر الكتابى
في العصر الأموى

الدكتور محمد فتوح أحمد
كلية دار العلوم – جامعة القاهرة

النثر الكتابي في العصر الأموي

الناشر
مكتبة الشباب
٢٦ شارع إسماعيل سري بالمنيرة

هذه الدراسة

هذه دراسة فى النثر الكتابى ، ويقصد بالنثر الكتابى أدب الرسائل العربية ، من حيث هو نوع قولى يتمتع بمقومات خاصة ، ويبنيه منشئه على نحو معين ، وفى إطار غايات فنية وجمالية تميزه عما سواه من الأنواع الأدبية ضرباً من التميز . ويعنى ذلك أن النسبة فى الشطر الثانى من التسمية هى نسبة إلى خصوص « الكتّاب » وليست إلى مطلق الكتابة ، وأن أصول وبدايات التدوين التاريخى والتأليف العلمى المحض قد تمسهما هذه الدراسة نوعاً من المساس ، ولكنهما — من الناحية المنهجية — يظلان خارج نطاقها .

وينبغى أن نعترف أن الأجناس النثرية فى الأدب العربى مغبونة إلى حد ما ، فهى لم تطرح على بساط البحث بذلك النزوع إلى التعميق والتحليل اللذين استأثرت بهما دراسات الشعر العربى ، وحين طرحت كانت تدور فى واحد من مدارين : مدار يتناول النثر العربى فى عموم أجناسه وشمول ظواهره ، وفى تنوع بيئاته واختلاف مواطنه ، وفى انداحه عبر عصور العربية قديمها وحديثها ، ومدار آخر يتناول ذلك النثر فى إطار أدب عصر أو إقليم أو بيئة ، وفى الحالتين كان الأمر محتاجاً إلى معاودة الظواهر النثرية بالدرس والتقويم ، ومن منظور تحليلى ، بعد ذلك المنظور التجميعى .

وحتى القسيم النثرى الآخر لأدب الكتابة ، نعنى أدب الخطابة ، تراه قد حظى من العناية والتوفر والمتابعة العلمية بما لم يحظ به شقيقه ؛ فقد كتب عن الخطابة بوجه عام (١) ، وكتب عن الخطابة العربية فى العصر

(١) يكفى أن نشير فى هذا المقام إلى «كتاب الخطابة » للدكتور نقولا فياض ، الصادر من دار الهلال سنة ١٩٣٠ م ، وكتاب « فن الخطابة » للدكتور أحمد الحوفى ، الصادر عن دار نهضة مصر بالقاهرة .

الأموى بوجه خاص (١) ، ما سد فراغاً كان ملموساً فى المكتبة الأدبية ، فإذا افترضنا العدل بين القسيمين ، فقد كان لنا أن نزعم وجود الحاجة إلى جهد مماثل فيما يتعلق بالنثر الكتابى ، صحيح أن طائفة لا بأس بها من مواد هذا النثر قد انبثت فى تضاعيف أمهات التراث ، أو جمعت فى بعض المختارات (٢) ، باعتبارها ذخيرة نصية غفلا ، ولكن دراسة هذه المواد ، واستنطاق معطياتها الفنية ، واكتشاف قيمتها الجمالية ، ظلت غايات تنتظر التحقيق ، وهى غايات حاول هذا البحث أن ينهض على دربها ببعض العبء ، أملا فى أن تتعاقب الأقلام على ظواهر مماثلة فى النثر العربى .

وقد لا يكون النثر الكتابى فى العصر الأموى قضية جديدة تماماً فى حقل الدراسات الأدبية . ومع ذلك فإن أمل هذه الدراسات — منذ اليوم — معقود بإعادة طرح الظواهر التراثية ، على الرغم من سبق التطرق إليها ، نعنى أن حاضر البحث الأدبى منوط — قبل كل شىء — بتميز طرق المعالجة ، وحداثة زاوية الرؤية ، وهو حين يتصدى للتراث لا يزعم لنفسه بكارة المادة أو غضارة الاكتشاف ، بقدر ما يدعى من منهجية النظر وعصرية التأويل ، وإذا كان الأمر أمر منهجية وتأويل فلا ريب أن أصقاعاً شتى فى تراثنا العربى قابلة لمثل هذا اللون من إعادة الارتياد ، فطالما عانى هذا التراث من اللمحة العجلى ، والإلمامة العابرة ، والأحكام القانعة بالمصادرة على المطلوب .

وأما قصر نطاق هذه الدراسة على الحقبة الأموية وما أفرزته من أدب الكتابة ، وهى حقبة تستغرق قرابة قرن من الزمن ، وتمتد من نهايات عهد الراشدين حتى غروب الدولة الأموية ، فذلك لما تتميز به هذه الحقبة من توتر وجيشان ،

---

(١) من نماذج هذا كتاب الدكتور إحسان النص : الخطابة العربية فى عصرها الذهبى ، الصادر من دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٣ ، وهو يعنى بالعصر الذهبى العصر الأموى .

(٢) من الأمهات فى جمع هذا التراث النثرى : تاريخ الطبرى والبيان والعقد وصبح الأعشى ، وما جرى هذا المجرى من الذخائر ، ومن كتب الاختيار المفيدة فى هذا الصدد كتاب المرحوم أحمد زكى صفوت : جمهرة رسائل العرب ، وهو يجمع طائفة ضخمة من الرسائل العربية فى عصور العربية الزاهرة .

وما تزخر به من تيارات الرأى والسياسة ، ثم لما يقتضيه هذا وذاك من ضرورة التعبير عنه بشتى أنماط القول شعره ونثره ، بل وبنثره قبل شعره ، ويمكن القول إن الشراذم الدينية والسياسية التى حفلت بها هذه الحقبة ، إن كانت قد انعكست بالسلب على وحدة جماعة المسلمين وتماسكها ، فإنها عادت بالإيجاب على فن القول وإنعاشه ، بحكم ثراء بواعثه وانتعاش دواعيه ، حيث أصبح « اللفظ » سلاحاً حاسماً فى الجدل بين الفرق والطوائف والأحزاب ، وغدت للكلمة المرسلة — بخاصة — قيمة الفعل فى استقطاب من ترسل إليهم حول مبدأ أو فكرة ، أو تنفيرهم من مبدأ أو فكرة ؛ وكان معنى هذا الازدواج فى وظيفة الرسالة بين الجذب والطرد ، أن الكلمة المكتوبة أضحت فى مواكبتها لصراع ذلك العصر « كلمة مقاتلة » .

ولا رغبة بهذا البحث فى المصادرة على ما سيقال بمزيد من التهيئة ، يكفى أن ذلك الذى سيقال لا يخلو من خلوص النية فى تحرى المقصود ، والأمل أن يضيف إلى ذلك شيئاً من سداد القصد ، والله المحمود من قبل ومن بعـــد .

العجوزة فى يناير سنة ١٩٨٤ .　　　　د. محمد فتوح أحمد

تَوْطِئَة

فى مُناخ النَّشأة والتأصيل

– ١ –

ربّما كان من أبرز التحوّلات القيميّة التى شهدها المجتمع الإسلامى ، وهو ما يزال بعدُ فى صدره الأوّل ، ذلك التبادل بين رابطتى الدم والعقيدة على نحو لا يدع مجالاً للّبس أو التوهّم فيما يتعلق بطبيعة الأساس الذى أصبح ينهض عليه هذا المجتمع الجديد ، فقد حلّت وحدة المعتقد محلّ وحدة القبيلة ، وقامت وشيجة الإسلام ، كرابطة روحية وفكرية ، مقام وشيجة الدم ، كرابطة اجتماعية (١) ؛ وتأكد هذا التحوّل فى مراكز القيم بكثير من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التى لا تحتاج فى معرفتها أو الوقوف على مقاصدها إلى مزيد من الإحالة أو البيان (٢) .

غير أنّ وحدة المعتقد على هذا النحو لم تستمر طويلاً فى دورها باعتبارها عامل جذب وتجميع ، أو قُلْ إن أداءها لهذا الدور أصبح بعد

---

(١) انظر : برنارد لويس : العرب فى التاريخ – تعريب نبيه أمين فارس ، محمود يوسف زايد – بيروت سنة ١٩٥٤ – ص ٥٦ .

(٢) يجزئ فى هذا المقام أن ترجع إلى الآية رقم ١٠٣ من سورة آل عمران ، أو إلى الآية رقم ١٠ من سورة الحجرات ، وإن لم يكونا النصين الوحيدين فى هذا المجال .

فترة من الوقت يكاد يكون مقصوراً على الأُصول الكبرى للعقيدة الدينية ؛ على حين كانت انعكاسات هذه الأُصول على النظام السياسي والتطورات الاجتماعية تسمح بغير قليل من الاجتهاد والتأويل ، اللذين تدرّجا منذ ولاية الخليفة الثالث عثمان بن عفان إلى جدل عنيف حول الخلافة ، وكيف يجب أن تكون ، ولمن ينبغي أن تكون ، وهو جدل كان يلتبس بالمحاجة الدينية والمناقشة الفكرية حيناً ، ثم لا يلبث أن تعلو نبرته وتشتد لهجته حتى يتحول إلى حوار بالسلاح .

وهكذا يمكن القول إن وحدة الأُصول إنْ كانت فى البداية عامل جذب وتجميع ، فقد كانت تجلّيات هذه الأُصول – ولا نقول هوامشها – مثار اختلاف فى الفهم وتنوّع فى طرق التطبيق ، وإذا كان باحث مثل « يوليوس فلهوزن » يرجع ببداية هذا الاختلاف إلى عهد الخليفة الثالث قائلا : « وكان بدء الخلاف فى الإسلام الثورة على عثمان ؛ فى سبيل الله ضدّ الخليفة ، ومن أجل الحق والعدل ضدّ فساد الحكم وظلمه (١) » ، فإن من الإنصاف أن نقرر أنّ مثل هذا التذرّع « بالحقّ والعدل » – وهما القيمتان اللتان ستنهضان بدور خطير فى تكوين الأحزاب والفرق الإسلامية – لم يُستخدم ضد عثمان وحده ، ولم يُرفع كشعار فى هذه الفترة ثم ينتهى ، بل أصبح يُستخدم ضد كل حاكم يخرج – فى نظر معارضيه – عن سواء السبيل ، بل إن من استخدموه ضد عثمان من قبل ، لم يجدوا حرجاً فى استخدامه ضد « علىّ » من

---

(١) يوليوس فلهوزن : أحزاب المعارضة السياسية الدينية فى صدر الإسلام – ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى – القاهرة سنة ١٩٥٨ – ص ٢٧ .

بعده ، وضد « معاوية » معه ، ثم فى مواجهة « عبد الله بن الزبير » بعد هؤلاء جميعاً ، وهكذا يرسخ فى الأذهان أن وحدة الشعار المرفوع لم تكن مانعة - فى أكثر الأحوال - من تعدد المواقف عند الممارسة .

ومثلما اقتضانا الإنصاف أن نمتدّ بهذا التعدد فى المواقف إلى رقعة أوسع من تلك التى اقتصر عليها فى الثورة ضد عثمان ؛ فإنه يقتضينا كذلك أن نرجع ببذور هذا الاختلاف إلى مرحلة تاريخية أسبق من تلك الثورة . ولسنا نشير فى هذا إلى ما أشار إليه عبد القاهر البغدادى من اختلاف المسلمين عقب وفاة الرسول (ص) حول حقيقة موته ، ثم حول مكان دفنه ، وهل يكون فى مكة حيث كان مولده ومبعثه وقبلته وموضع نسله ، أو بالمدينة حيث دار هجرته وموطن أنصاره ؛ وهو الخلاف الذى حسمه الصدّيق أبو بكر حين ذكّر المختلفين بالآية الكريمة : « إنك ميّت وإنهم ميتون » ، وبما سمعه من الرسول (ص) من « أن الأنبياء يدفنون حيث يُقبضون » (١)؛ لسنا نشير إلى مثل هذا الاختلاف فحسب ، لأنه - أوّلا - لم يحمل طابعاً سياسياً ، كما لم تكن له - ثانياً - صبغة الديمومة والاستمرار ، وقد زال بزوال ظروفه .

إن ما ينبغى التوقف عنده حقاً ، هو ذلك الجدل المدوّى الذى نشب بين المهاجرين والأنصار بشأن الخلافة ، وصحيح أن ذلك الجدل قد انتهى بأخذ البيعة لأبى بكر ، ولكنه كان أوّل تجربة صعبة لاختلاف

---

(١) انظر : عبد القاهر البغدادى - الفرق بين الفرق - تحقيق محمد بدر - مطبعة المعارف - مصر سنة ١٩١٠ - ص ١٣ وما بعدها .

الرأى فيما يتعلق بإمارة المؤمنين ، كما أنه لم ينته إلاّ وقد خلّف رواسب ظلت كامنة فى أطواء النفوس ، حتى إذا وجدت ريحاً مواتية بعد أن خفّت قبضة الراشدين بوفاة الخليفة الثانى ، وقلّ انشغال المسلمين بأُمور الفتح ومقتضيات الجهاد ، بدأت هذه الرواسب تطلّ من جديد بأشكالها الشائهة الكريهة ، وكان ما كان من مقتل الخليفة الثالث سنة ٣٥ هـ ، وتأجّج الصراع جذعاً عنيفاً بين قطبي السياسة الإسلامية فى هذه الحقبة : على بن أبي طالب ، ومعاوية بن أبي سفيان .

– ٢ –

وما نريد أن نزجّ بهذه الدراسة فيما لم تقصد إليه من رصد المناخ السياسى والمذهبي لهذه الحقبة من أواخر عهد الراشدين ومطالع العصر الأموى ، وربما كان فيما قلناه كفاية للتدليل على هذه الحقيقة التى كنا نستهدفها منذ البدء ، وهى أن الشراذم السياسية والدينية ، أو من اصطلح الأقدمون على تسميتهم « بأهل الأهواء »(١) ، قد أسهموا – منذ الإطاحة بالخليفة الثالث – فى تشكيل الحركة السياسية والاجتماعية ، كما أسهموا – من ثمة – فى التعبير عن هذه الحركة بشتى أنماط التعبير نظمه ونثره ، وبمعنى آخر ، يمكن القول إن هذه « الأهواء » إن كانت ذات تأثير سلبي فيما يختص بوحدة الجماعة وتماسكها ، فإنها كانت ذات مردود إيجابي فيما يتعلق بإثراء فن القول وإنعاشه ، بحكم ثراء بواعثه وانتعاش دواعيه ، حيث أصبحت الكلمة سلاحاً حاسماً فى الجدل بين

(١) التعبير لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد – الكامل – جـ ٣ ـ مكتبة نهضة مصر – القاهرة (د . ت) – ص ٢١٤ .

الفرق والأحزاب ، وغدت للخطبة أو الرسالة - مثلا - قيمة الفعل فى الاستقطاب والطرد ، عنينا قدرة كل منهما على استقطاب فيالق المسلمين حول مبدأ أو فكرة أو فرقة ، أو تنفيرهم من مبدأ أو فكرة أو فرقة ، ولا نبالغ إذا قلنا إنّ «الكلمة المقاتلة» لم تتجلّ بكامل طاقتها على الفعل قدر ما تجلت منذ أواخر عهد الراشدين ، ومروراً بمراحل التطور إبّان العصر الأموى .

ولنا على هذا الربط بين « ازدهار الأهواء » وازدهار فن القول أكثر من دليل ، وأوّل هذه الأدلّة ما نلحظه من اقتران هذا الازدهار القوْلىّ بتلك الفترات التى تتباين فيها المنازع وتضطرب الآراء ، فتشتدّ الحاجة إلى الكلمة وسيلة للحوار والإقناع ، وطالعْ - إن شئت - بعض أمهات كتب التراث ، كتاريخ الطبرى أو مروج الذهب أو الإمامة والسياسة ، فإنك واجد أن وفرة من وثائق هذا التراث المكتوبة والمنطوقة تواكب المواقف الدقيقة فى حياة هذه الحقبة : كموقف الصراع بين على ومعاوية ، وموقف البيعة ليزيد بن معاوية ، وخروج الحسين ، وثورات الخوارج ، وانتفاضات الشيعة ، وما إلى ذلك من مناطق الحرج والجيشان فى خريطة العصر الأموى .

ثم إنَّ المقدّمين من «أهل الأهواء» وذوى الصدارة فيهم - أيًّا كان الرأى فى اتجاهاتهم ومذاهبهم - لم يكونوا يخلون من لسَن وفصاحة ، وكان مستوى هذه الفصاحة يبلغ بأحدهم أحياناً إلى حدّ أن تتنازعه جماعات شتى ، استئثاراً به ، وحرصاً على أن تنسب إلى نفسها ما يُنْسب إليه من جهارة العبارة وقوة الاحتجاج ، مثل أبى بلال مِرْداس ابن أُدَيَّة الذى اشتهر «بالخرُوج» ، ومع ذلك يذكر أبو العباس المبرّد أن

جماعة من أهل الأهواء كانت تنتحله ، لجملة أسباب ، أهمها « ظهور ديانته وبيانه » (١) ؛ فقد انتحلته المعتزلة ، كما انتحلته الشيعة ، زاعمين أنه كتب إلى الحسين بن على : « إنى لستُ أرى رأى الخوارج ، وما أنا إلا على دين أبيك » . (٢)

أكثر من هذا ؛ قد تجد من آيات اعتزاز هذه الحقبة بفنّ القول والمبرّزين فيه ، ما يدفع المرء إلى تقدير عدوّه والاعتراف بفضله ، برغم ضراوة الخصومة وتباعد المشارب ، وفى تلك الحالة قد يمتزج الشعور بنقيضه ، وقد تتزاحم البواعث المتباينة حتى تكاد تفضى إلى تصرفات لا تقلّ عن تلك البواعث تبايُناً واختلافاً ، فهذا هو عبد الملك ابن مروان يُؤتَى برجل من الخوارج — على ما كان بين عبد الملك وبينهم — فيبسط الرجل لعبد الملك من قولهم ، ويزيّن له مذهبهم « بلسان طلْق وألفاظ بيّنة ومعان قريبة » ، حتى يبلغ من افتنان عبد الملك بهذه الطلاقة أن يخشى على يقينه من لسان الرجل ، ولا يتحرج من الإفصاح عن هذه الخشية بقوله : « لقد كاد يُوقِع فى خاطرى أن الجنة خُلِقَتْ لهم ، وأنّا أوْلى بالجهاد منهم » (٣) .

وإذ يمتزج الافتتان بالتوجّس على هذا النحو ، وتتصاعد الخشية على النفس حتى تصبح خشية على جماهير المسلمين ، يقنع عبد الملك من العقاب بأهْونه ، وبما يحول بين مثل هذا اللسان وأن يمتد بتأثيره إلى

---

(١) المرجع السابق — جـ ٣ — ص ٢١٤ .
(٢) المرجع السابق — جـ ٣ — ص ٢١٥ .
(٣) المرجع نفسه : ص ٢٣١ — ٢٣٢ .

عامة الرعية ، فيأمر بحبس الرجل بعد أن كان قد همّ بقتله ، قائلا له فيما يشبه الاعتذار : لوْلا أن تفسد بألفاظك أكثر رعيّتي ما حبستُك » (١) ، وهو اعتذار يحمل فى تضاعيفه معنى الاعتراف والتقدير .

- ٣ -

والملحظ الجدير بالانتباه ، أنّ المناخ الذى ولدت فيه هذه الأهواء كان أكثر مواءمة لفنون النثر - الرسائل والخطب بالتحديد - منه لفن الشعر ؛ باعتبار أنّ التحزّب السياسى والتفرق الدينى يحتاجان إلى الكلمة المجادِلة والعبارة المحتجّة ، أكثر مما يحتاجان إلى الخيال المجنّح والصورة الشعرية المحلّقة ، وهكذا يمكن أن نزعم - دون أن نشتطّ فى التعميم كثيراً - أنه على حين كان العصر الجاهلى بطبيعته عصراً شعرياً ، كانت مرحلة الأعراف بين عهدى الراشدين وبنى أمية مرحلة نثرية ، بحكم ما واكبها من ظروف جعلت الضرورة إلى الكلمة الناثرة ، أشدّ منها إلى الكلمة الشاعرة ، وهكذا - أيضاً - يمكن أن نفهم بعض أسرار ذلك الازدهار الذى صابته فنون النثر - وبخاصة ما يتعلق منها بالكتابة والخطابة - منذ تلك الآونة وحتى غروب شمس الأمويين : دون أن نصادر بهذا الحكم على ما تلا ذلك من أطوار النثر العربى .

وربما كان هذا الملحظ وراء ما ذهب إليه الدكتور طه حسين من أنّ النثر العربى إسلاميّ النشأة ، « وأننا لا نستطيع بحال من الأحوال ، مهما نحرص على أن نكون من أنصار العصر الجاهلى وعشاقه ، أن

---

(١) المرجع نفسه - ص ٢٣٢ .

نطمئن إلى أنّ هذا العصر كان له نثر فني (١) » ، فإذا احتججْنا على هذا الرأى بما عرف به العرب فى الجاهلية من خطابة ، ضرورة أنّ ما كان يقع بينهم من خصومات كان يحتاج إلى كلام غير منظوم ، وأن هذا الكلام لم يكن يساق لمجرد التفاهم والإقناع ، بل لإثارة اللذة الفنية ، التى إن وُجِدَت فقد وجد الجمال الفنى ، ردّ الكاتب على هذا الاحتجاج بقوله : « ولكنّ هذه الخطابة لم يرد إلينا منها شىء نثق به ، وربما كان من السهل أن نتصور هذه الخطابة تصوراً مقارباً ليس دقيقاً عندما نقرأ كتب السِّير وما فيها من خطابة وأحاديث ، كلّ هذا يعطينا فكرة عن النثر الجاهلى (٢) » .

وهكذا تصبح أوليّة النثر العربى — من وجهة نظر الكاتب — مدينة لمنتصف القرن الأول الهجرى (٣) ، بعد أن كثرت الفتوح ، واتّصل العرب بغيرهم من الأمم والشعوب ، وارتقى المستوى الحضارى إلى درجة لم يعدْ الشعر فيها قادراً على التعبير وحده عن الدواعى الفكرية والثقافية والاجتماعية الجديدة ، فليس الشعر قادراً على بسط الرأى السياسى ، وليس قادراً على شرح الرأى الدينى والفلسفى ، وليس منوطاً به قصّ التاريخ قصصاً واسعاً ومفصّلا ، إنما تلك جميعاً « مهام نثرية ؛ إذا صح التعبير ، وهى مهام لا ينهض بها إلا هذا النثر الذى يعتبر « أثراً من آثار الحياة الإسلامية الجديدة ، ظهر فى الإسلام ولم يكن موجوداً ...

---

(١) الدكتور طه حسين : من حديث الشعر والنثر — المجموعة الكاملة — المجلد الخامس — دار الكتاب اللبنانى — بيروت سنة ١٩٧٣ — ص ٥٧٦ .

(٢) المرجع السابق — ص ٥٧٨ .

(٣) انظر المرجع نفسه — ص ٥٧٨ .

وهو فن دعت إليه حاجة الحياة العربية ، ولذلك يجب أن ننتزع من نفوسنا أن العرب استعارت النثر من غيرها من الأمم » (١) .

أمّا أنّ العرب لم يستعيروا النثر من غيرهم من الأمم ، فهو أمر لا يمارى فيه منصف ؛ إذ ليس معقولا أن يجيد العرب فى فن ذى تقاليد ، كالشعر . والتقاليد قيود . وأن يعجزوا فى ذات الوقت عن النثر المرسل ، مع ما تقتضيه الحاجة إلى مثل هذا النثر . وبخاصة فى ساحات الاحتجاج ومجالات الرأى وكل ما يدعو الإنسان إلى التعبير عن نفسه تعبيراً غير شعرى . ولعل الدكتور طه حسين كان يلمح بهذه المقولة إلى بعض المستشرقين الذين أسرفوا على أنفسهم وعلى الحقيقة العلمية حين زعموا أن العرب قد تتلمذوا فى النشأة النثرية الأولى على غيرهم من الأمم كالفرس واليونان (٢) . غير مدركين أنه إذا صحّ الحديث عن مثل هذا الأثر الأجنبى فى نثر كاتب كابن المقفع ، فإنه يصعب الحديث عنه بالنسبة إلى خطب زياد ، أو الحجاج ، أو بالنسبة إلى رسائل الحسين أو عمر بن عبد العزيز ؛ لأن المناخ الذى تسبح فيه مثل هذه الوثائق النثرية مناخ عربى صرف .

وأمّا إرجاء أوليّة النثر العربى إلى منتصف القرن الأول الهجرى —

(١) المرجع نفسه — ص ٥٨٠ .

(٢) من هؤلاء المستشرقين وليم مارسيه William Marsais الذى أشار إليه الدكتور طه حسين فى مقام حديثه عن أصل النثر العربى ، والذى عنى نفسه ، بالبحث عن الجذور الفارسية فى نثر ابن المقفع ، وقد رد عليه الدكتور أحمد الحوفى وناقش وجهة نظره بما لا يقتضى المزيد ، انظر :

د . طه حسين : من حديث الشعر والنثر — ص ٥٨٤ .

د . أحمد الحوفى : أدب السياسة — ط ٣ — دار نهضة مصر — القاهرة — ص ٤٤٥ وما بعدها .

كما رأى الدكتور طه حسين – فهو الأمر الذى لا يخلو من جدل ، حتى لو كان المقصود بذلك النثر الفنى ؛ إذ ليس متصوراً أن تتجرد خطب الرسول وكتبه وعهوده ، وأن تتجرد خطب خلفائه وكتبهم ووصاياهم ، من مثل هذا الطابع الفنى تجرداً مطلقاً ، وقد روت لنا مصادر التراث كسيرة ابن هشام وتاريخ الطبرى والأغانى وصبح الأعشى وكتب الفتوح ، فضلاً عن الصحاح من جوامع السنة ، طائفة لا بأس بها من هذه الخطب والرسائل والعهود ، وصحيح أن وفرة من هذا التراث النثرى كانت ذات صبغة عملية ، وأنها تميل إلى تقرير الحقيقة من أقرب طريق ، وأنها تنأى عن التحبير ، وتبتعد عن الصنعة ، ولا تتمحض للغايات الجمالية الخالصة ، ولكن هذا هو شأن كل فن فى بداياته ، والشعر نفسه – دون استثناء الشعر العربى القديم – قد مرّ بمثل هذا الطّوْر من بساطة الأداء وتلقائية المعالجة ، حين كان يجنح إلى المباشرة والارتجال وحسّية التصوير ، فليست بدايات النثر العربى بدْعاً من هذه المقولة : التى تكاد تنطبق على كل فنون التعبير دون كبير اختلاف .

ومع ذلك لا يخلو النثر العربى – حتى فى هذه المرحلة المبكرة – من بعض شذرات هذا التصوير الفنى ؛ وإنْ تكن شذرات موسومة بما أشرنا إليه من بساطة وتلقائية . يقول عمر بن الخطاب فى كتابه إلى أبى عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل : وكتبتُما تخوّفانى يوماً هو آت . وذلك باختلاف الليل والنهار ، فإنهما يُبْليان كلّ جديد ، ويُقَرِّبان كلّ بعيد ، ويأْتيانِ بكلّ موْعود ، حتى يأْتيا بيوم القيامة ، يوم تُبلى فيه السرائر ، وتُكشف العورات ، وتعنو فيه الوجوه ، لعزة ملك قهرهم

بجبروته ، فالناس له داخرون ، يخافون عقابه ، وينتظرون قضاءه ، ويرجون رحمته (١) » .

ففي إبلاء الليل والنهار كل جديد صورة لا تخلو من إيحاء بسطوة الزمن وضعف الإنسان . وفي التعبير باختبار السرائر (تُبْلَى فيه السرائر) وكشف العورات عن ظهور خفايا الإنسان وافتضاح سوْءاته يوم القيامة ، تصوير يجمع بين البساطة والطرافة . مع تأثر واضح بالقرآن الكريم . هذا فضلاً عن التماثل في عدد من فواصل الجمل (جديد — بعيد ، عقابه — قضاءه) . والتوازن في بعض البِنْيات التركيبية (يبليان كل جديد ، يقرّبان كل بعيد ، يخافون عقابه — ينتظرون قضاءه) .

وقد يقال إنَّ مثل هذا التراث النثرى إنْ دلَّ على مستوى القول في صدر الإسلام فلا يدلّ على مستواه في الجاهلية ، وإنْ أثبت تمكُّن اللسان العربي من البيان المنثور في هذه الحقبة ؛ فلا يثبت تمكنه منه في حقبة سابقة . والحق أن وجود هذا التراث بهذا الشكل من الدقة والإحكام ، وعلى هذا النحو من الجمع بين غايتيْ السلامة والجمال على صعيد واحد ؛ وهما غايتان لا تتوفّران إلاَّ حيث تنتهى حدود الدارج من الكلام وتبدأ حدود فن الكلام — كل هذا لا يمكن أن ينبثق من فراغ ، بل لابد أن يكون قد سُبق بمراحل من النشأة والتطور ، هيَّأت

---

(١) النص موجود مع بعض الاختلاف في :
أبو بكر الباقلاني : إعجاز القرآن — تحقيق محمد عبد المنعم خفاجى — مطبعة صبيح — القاهرة — ١٩٥١ — ص ١٦٨ .
وقد اعتمدنا على الرواية التي أوردها أحمد زكي صفوت في كتاب : جمهرة رسائل العرب — ج ١ — الطبعة الأولى — مصر سنة ١٩٣٧ — ص ١٦٠ .

له أن يصل إلى ما وصل إليه من دقة وإحكام ، ومن سلامة وجمال ، ولا يتأتّى هذا إلاّ أن تكون تلك النشأة ، وأن يكون هذا التطوّر قد واكبا بعضاً من الزمان الجاهلى .

ومع التسليم بأن قدراً كبيراً من ثمرات هذه النشأة لم يصل إلينا ، أو لم يصل إلينا منه « شيء نثق به » ، على حد تعبير الدكتور طه حسين : فإن عدم الوصول لا يعنى عدم الوجود ، وغياب كثير من نماذج النثر الجاهلى عن نظرنا العلمى – حتى الآن – لا يعنى أن هذه النماذج لم تكن على الإطلاق ، فنحن لا نعلم عن جاهلية الشعر العربى أكثر مما يدور فى نطاق قرنين من الزمان قبل الإسلام ، على أحسن الفروض ، ومع ذلك ليس فينا من يمارى فى أن الشعر العربى قد شهد أطواراً من النموّ قبل هذا النطاق الزمنى المحدود ؛ لأنّ درجة النضج فيما وصل إلينا منه تقطع بسبق ما لم يصل ، ووقوفنا على المعلوم منه يعطينا تصوراً مّا عمّا بقى مجهولاً منه ، بغضّ النظر عن أنّ هذا المجهول ليس بعدُ قيْد النظر .

على أنّ الحقيقة المؤكدة أن حصاد النثر الجاهلى لم يذهب كلّه ، ودَعْك من الخطب الجاهلية التى « لا يثق بها » بعض الباحثين ، فقد أوردت بعض أمّهات التراث العربى كتاريخ الطبرى ، والأغانى ، ومجمع الأمثال للميدانى ، والعقد الفريد وغيرها ، عدداً غير قليل من الكتب والرسائل التى تبودلت بين وجوه العرب وغيرهم من وجوه الأمم الأخرى ، وبصفة خاصة تلك التى تُبودلت بين ملوك المناذرة وأكاسرة الفرس ، ومنها كتاب المنذر الأكبر إلى أنوشروان ، وكتاب عمرو بن هند إلى عامله بالبحرين ، وهو الكتاب المسمى بصحيفة المتلمّس ، وكتاب النعمان بن المنذر إلى كسرى

يقدّم له بعض وفود العرب إليه ، وقد أورد صاحب العقد الفريد نصّ هذا الكتاب الأخير فى تضاعيف قصة طويلة عن مفاخر العرب وأفضالهم ، مما لا مجال هنا للإفاضة فيه (١) .

ووجود هذا الكتاب وأمثاله يقطع بأن العرب على الرغم من جهلهم فى الأعم الأغلب بالكتابة باعتبارها خبرة يدوية ؛ فلم يجهلوها باعتبارها فن الكلام المنقول ، أى باعتبارها رسالة تُقال لتحمل من المرسِل إلى المرسَل إليه ، وحتى هذه الخبرة اليدوية ، خبرة القلم والقرطاس والرموز ، لم تكن معدومة تماماً ، صحيح أنها لم تكن فاشية فى أهل البادية ، ولذلك كانوا يعتمدون فى تراسلهم على المشافهة ، وكانوا يحتفظون بآثارهم الأدبية فى الصدور ، ويتناقلونها على الألسن ، أما أهل الحاضرة فقد حظوا بقسط لا بأس به من الثقافة ، وألمّوا بالكتابة بعض الإلمام ، فتبادلوا الرسائل المكتوبة ، ولكنهم لتقادم العهد لم يؤثر عنهم من تلك الرسائل إلاّ القليل (٢) ، وحتى هذا القليل لا يكاد يمنحنا صورة صحيحة تامّة للنثر العربى فى هذه الحقبة ، ولكنه — فى حدود تلك الأمثلة التى أشرنا إليها — كافٍ « لإثبات الوجود » ، ومقنع فى دلالته على أنّ العرب لم يُحرموا نعمة التعبير الأدبى المنثور ، بل إن فيه — فوق هذا وذاك — أبلغ ردّ على ما زعمه نيكلسون « من أن العرب

---

(١) انظر : أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسى : العقد الفريد — جـ ٢ — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — القاهرة سنة ١٩٤٠ — ص ١٠ — ١١ .

(٢) انظر : أحمد زكى صفوت — جمهرة رسائل العرب — الجزء الأول — مطبعة الحلبى — مصر سنة ١٩٣٧ — ص ١ .

لعدم ممارستهم الكتابة فى الجاهلية لم ينشأ منهم قطُّ شىء من النثر الفنّى (١) » .

ويكاد يكون فى حكم المجمع عليه أن العرب قد عرفوا فى الجاهلية ضرباً من الكلام المسجوع ، اقترنت نسْبته بالكهّان على وجه الخصوص ، وقد أفضى هذا الاقتران إلى العزوف عن ذلك الضرب من الكلام فى أوليات الإسلام ؛ لما فيه من تذكير بماضىَ الكهانة الجاهلية . ثم لما فيه من إيحاء بسلطة الكهّان التى كانت موطن توقير قبل الإسلام ، ثم أصبحت موطن ذم وتحذير بعده . وقد أشار الجاحظ صراحة إلى هذا الاعتبار حين علل استنكار الرسول (ص) لأُسلوب ذلك الرجل الذى تحدث أمامه فسجع ؛ فقال له الرسول فى نبرة تحمل معنى الرفض : « أَسَجْعٌ كسجع الجاهلية ؟ ! ! » ، فكان ممّا علّل به الجاحظ هذا الاستنكار إشارته إلى : « أنَّ كهّان العرب الذين كان أكثر الجاهلية يتحاكمون إليهم ، وكانوا يدّعون الكهانة وأنَّ مع كل واحد منهم رِئِيًّا (٢) من الجن . . . كانوا يتكهّنون ويحكمون بالأسجاع . . قالوا : فوقع النهى فى ذلك الدهر لقرب عهدهم بالجاهلية ، ولبقيّتها فى صدور كثير منهم ، فلما زالت العلة زال التحريم (٣) » .

---

(١) Nicholson, Literary Hist. of the Arabs, 1930, P.31.
وانظر أيضاً : أنيس المقدسى — تطور الأساليب النثرية فى الأدب العربى — بيروت سنة ١٩٣٥ — ص ٧ .

(٢) أى : قريناً من الجن .

(٣) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ — البيان والتبيين — تحقيق وشرح عبد السلام هارون — ح ١ — ص ٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

ولسنا هنا لنناقش حقيقة منع هذا الكلام المسجوع وأسباب تحريمه ؛ فالذى لا شك فيه أن هذا الضرب من الكلام لم يمنع لذاته ، وإلاّ كان غيره من القصيد والرجز أولى بالمنع ، ولم يُمنع منعاً مؤبّداً، وإلاّ لَمَا سمعنا من الخطباء من كان يتكلم عند الخلفاء الراشدين أو يخطب بين أيديهم ، « ويكون فى تلك الخطب أسجاع كثيرة ، فلا ينهوْنهم (١) » ، ولكنّ ما نريد تأكيده فى هذا المقام أن ذلك النوع من الكلام لم يكن ليُمنع لولا أنهُ موجود ، ولم يكن ليوجد فى عهد الرسول (ص) لولا سابق معرفة العرب به فى الجاهلية ، بل إن التحذير منه يحمل شهادة ضمنية بأن معرفتهم به كانت من العمق والاستمرار بحيث يُخْشَى من ارتدادهم إليه ، ثم بحيث يُخشى مما اقترن به من كهانة ، وما حفّ به من قداسة دينية وثنية .

ثمّ إن النثر فى الدارج من مراتبه يعتبر من اللزوم والضرورة بحيث لا تكاد تستغنى عنه الجماعة من الناس وهى تخطو خطواتها الأولى فى الاتصال بغيرها من الجماعات البشرية ، وليس منطقياً أن تبلغ قريش فى جاهليتها القريبة ذلك الحدّ المعلوم من التطور التجارى والاحتكاك الحضارى بما جاورها من أقطار اليمن والشام والعراق وفارس، ثم لا يكون لها من وسائل الإبانة غير المنظومة ما يوازى هذا التطور ويترجم عنه .

بل إنّ مثل هذا التطور لا يقتضى تلك الإبانة وحسْب ، بل ربما يفضى — كما حدث بالفعل — إلى تسجيل أساليب تلك الإبانة تسجيلاً

---

(١) المصدر السابق — جـ ١ — ص ٢٩١ .

كتابياً ، وهو ما سبق أن ألمحنا إليه حين قلنا إن الحواضر العربية فى الجاهلية لم تَخْلُ من خبرة — وإن تكن محدودة — بالقلم والقرطاس ، وفى القرآن الكريم من النصوص ما لا يدع مجالا للريب فى معرفة العرب بالكتابة واستخدامهم إياها فى مرافق حياتهم ،وربما أَضَفْنا إلى ذلك ما تتضافر عليه نُقُول المؤرخين وروايات الرواة من أن الفترة التى واكبت ظهور الإسلام شهدت بعض الكتّاب من قريش ، وأنّ العرب كانت تؤرخ فى كتبها ودیونها من عام الفيل ، ثم عام الفِجار . حتى جاء الإسلام فأرّخ المسلمون بعام الهجرة ، وأن النبى (ص) كان لديه من الصحابة من يكتبون عنه الوحى . ومن يقومون عنه بتحبير رسائله إلى الملوك وشيوخ القبائل ؛ وكان لهؤلاء الذين يكتبون نواب ينهضون عنهم بالمهمة إذا غابوا ، فقد كان على بن أبى طالب وعثمان بن عفان يكتبان الوحى . فإن غابا كتب أُبىّ بن كعب وزيد بن ثابت .

وكان عبد الله بن الأرقم وزيد بن ثابت يكتبان عن الرسول (ص) إلى الأباطرة والملوك ، أمّا خالد بن سعيد بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان فكانا يكتبان بين يديه فى حوائجه ، وكان المغيرة بن شعبة والحصين ابن نمير يكتبان ما بين الناس، كما كانا ينوبان عن خالد ومعاوية إذا لم يحضرا ، هذا على حين كان زيد بن أرقم والعلاء بن عقبة يكتبان بين القوم فى قبائلهم ومياههم وفى دُور الأنصار بين الرجال والنساء (١) .

---

(١) العقد الفريد — ج ٣ — نشرة محمود شاكر الكتبى — الطبعة الأولى — القاهرة سنة ١٩١٣ — ص ٤ — ٦ .

ولا يدل هذا فقط على مجرد معرفة القراءة والكتابة ، ولا على مجرد وجود الكاتبين لذلك العهد ، ولكنه يبرهن — بداهة — على مكانتهما فى الفترة السابقة على البعثة ، ضرورة أن هؤلاء الذين شهدوا مطالع الإسلام قد شهدوا خواتيم الجاهلية ؛ وأنهم كانوا يكتبون فى الجاهلية ، فلما من الله عليهم بنعمة الإسلام ظلوا يصطنعون الكتابة ويمارسونها ؛ وأن مستوى ما كانوا يصطنعونه فى بواكير الإسلام مرتبط أوثق الارتباط بما بلغته الكتابة من مستوى فى أخريات الجاهلية ، بل إنه يبرهن — فضلا عن هذا وذاك — على أن تطوّر الخبرة الكتابية قد بلغ حدّاً أدنى من التخصّص ، بحيث صار للوحى كتّابه ، ولرسائل الملوك — أو ما يشبه الكتابة الديوانية — كتّابها ، وللكتابة العامة ، كتسجيل الديون وتوثيق العقود ، من يقوم بها وينهض بمهامّها بين الناس ، الذين كانوا — فى مجملهم — ما يزالون أمّيين .

والحديث عن « تقارب المستويات » ، أوْ دلالة البواكير الإسلامية على الخواتيم الجاهلية ، يتجلى أوضح ما يتجلى فيما أملاه الرسول (ص) ، ثم فيما كتبه الخلفاء الثلاثة الأوائل على وجه التخصيص ، وفى النثر الكتابى لهذه الفترة تلمح غلبة « الطابع العملى » والقصد إلى المراد من أقرب طريق ، وهذه « الغائية » أو « الهدفية » فيما يُكتب مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بطبيعة المرحلة ، فقد كانت مرحلة إنشاء وتأسيس ، وحمل للإسلام إلى الآفاق ، وترسيخ لتقاليد الدولة الجديدة ، وجميعها هموم تُوَظِّف النثر توظيفاً واقعياً ، وتجعله محدوداً بمقتضيات هذه الهموم وأبعادها ، مثلما وظفت الشعر فيما يشبه هذه الغاية حين وجّهت شعراء المسلمين

إلى مناقضة المشركين والرد عليهم والذود عن الإسلام وقيمه الروحية والحضارية .

ولعلّ مما يدلك على العلاقة المتبادلة بين المستوى النثرى والغايات العملية لهذه المرحلة، ما نلحظه من تطوّر طبيعة الإملاء النبوى بتطوّر الغايات التى عبّر عنها أو ارتبط بها ؛ فحين كانت الغاية محالفة القبائل وتأليفها للاستعانة بها على قريش كانت أماليه (ص) فى الغالب سياسية الصبغة . تجنح إلى القصد والتركيز ، وحين أخذت قوة قريش فى التناقص والذبول ، بعد موقعة الأحزاب بخاصة ، أصبحت هذه الأمالى أكثر تعبيراً عن قوة الاسلام ، وغدت عهوده فى معظم الأحوال تشترط الإسلام على القبائل التى تبرم معها هذه العهود ، أما بعد فتح مكة فقد ازدهرت دعوة الإسلام ، وأصبحت يثرب أهم حواضر الجزيرة العربية ، إليها تقبل الوفود ، وعنها تصدر الكتب والمواثيق ؛ ومن ثم نرى وضع القوة الذى صار إليه المسلمون ينعكس على الرسائل والعهود ، وعلى الموضوعات التى تتناولها هذه المكتوبات من زكاة وصدقات وبعوث من العمال والولاة (١) ، وإن كانت طبيعة الإملاء النبوى فى شتى أطوارها لم تتخلّ عما اتسمت به منذ البداية من إيجاز . وعزوف عن الصنعة ، ورعاية لمقتضى حال المرسل إليه : وجميعها سمات تشى ببعض ما كانت الكتابة قد وصلت إليه قبيل الإسلام .

---

(١) انظر — أنيس المقدسى — تطور الأساليب النثرية — ص ١٠ وما بعدها .

وأما الحديث عن « الحد الأدنى من التخصص » ، وهو الحد الذى وصلت إليه الكتابة والكاتبون ، والذى سيمهد لمزيد من التطور والتعقيد فى الصنعة النثرية منذ أواخر عهد الراشدين ، بدايةً من ولاية الخليفة الرابع بخاصة ، ومرورا بالعصر الأموى بكلٍّ ما حفل به من تيارات الرأى والسياسة ، وبكل ما عسى أن تفضى إليه هذه التيارات من ازدهار الكلمة المنثورة ، فإن مثل هذا الحديث قد يلقى بعض الضوء على النشأة الرسمية لأدب الكتابة ، نعنى تلك الظروف التاريخية التى بدأ فيها استخدام الخلفاء والقادة وأولى الأمر لمن ينوبون عنهم فى صوغ الرسائل وتحبيرها .

— ٤ —

وقد شاع لدى فريق من الباحثين أن تخصيص كتّاب بأعينهم لكتابة الرسائل لم يبدأ إلّا منذ عهد عبد الملك بن مروان (٦٥–٨٦ هـ ، ٦٨٥–٧٠٥ م) ، ومنذ ذلك الحين لم تعد الكتابة من عمل الخلفاء وإملائهم كما كانت من قبل ، وصار لها ديوان خاص بها يتولّاها ؛ فعبد الملك إذنْ – من وجهة نظر هذا الفريق – بادىء هذا التخصيص ، وقد اختار كاتبا له سليمان بن سعد ، ولم يقتصر الأمر على تشجيع هذا النوع من الكتابة الرسمية واختيار من يتصدّون له ، بل تعدّى ذلك إلى العمل على تعريب الدواوين ونقل لغة الكتابة فيها من الرومية أو الفارسية أو القبطية إلى اللغة العربية ، فقد كان ديوان الخراج بالشام يستخدم اللغة الرومية ، وكان ديوان الخراج بالعراق يستعمل اللغة الفارسية ، كما كان ديوان الخراج بمصر يعوّل على اللغة القبطية

فى كتابته ، حتى تمّ تحويل هذه الدواوين جميعا إلى استخدام اللغة العربية . (١)

والحق أن الكتابة الديوانية - أو لغة الدواوين - ترتبط ارتباطا وثيقا بسياسة الفتوح ، ولم تستقر هذه السياسة بعض الاستقرار إلّا بعد فتوح الشام والعراق ومصر ، ولكن هذا الاستقرار لم يكن نهائيا ؛ إذْ كان ما كان من حديث الفتنة ، واضطراب أمر المسلمين بعد مقتل عثمان ، والصراع المدوّى بين على ومعاوية ، فشُغلَ ولاة الأمر عن النظر فى الأحوال الداخلية للأقاليم المفتوحة ، بما فى ذلك الانشغال عما يتعلق بالدواوين ولغتها والقائمين عليها ، حتى استتبّ الأمر للأمويين أو كاد ، فنهض عبد الملك وعمّاله بتعريب الدواوين باعتبارها بناءً هامّا من أبنية الهيكل الإدارى للدولة ، ولكنّ الذى يلفت النظر أن مسألة استخدام الآخرين فى الكتابة لم تبدأ فقط منذ هذه الآونة ، ولم يكن عبد الملك أوّل من « بدأ بهذا ، إذ اتخذ سليمان بن سعد كاتباً له على الرسائل » (٢) ، فبالإضافة إلى ما قررناه من وجود مثل هذه الوظائف الكتابية منذ عهد الرسول (ص) ، نرى كلاًّ من عثمان ابن عثّان وزيد بن ثابت يكتب لأبى بكر زمن خلافته ، كما كتب زيد بن ثابت وعبد الله بن الأرقم لعمر بن الخطاب، كما كان يكتب له على ديوان البصرة عبد الله بن خلف الخزاعى ، وعلى ديوان الكوفة أبو جبيرة بن الضحّاك .

---

(١) انظر فى تفصيل هذا الرأى :
د . أحمد الحوفى : أدب السياسة - ص ٤٣٣ - ٤٣٤ .

(٢) المرجع السابق - ص ٤٣٣ .

أما الخليفة الثالث — عثمان بن عفان — فقد كتب له مروان بن الحكم ، وكان عبد الملك بن مروان كاتبا له على ديوان المدينة ، على حين كان عبد الله بن الأرقم كاتبا له على بيت المال .

أمّا على بن أبى طالب فكان يكتب له سعد بن عمران الهمدانى وعبد الله بن جعفر وعبد الله بن أبى رافع وغيرهم(١) ، وقد كان « علىّ » ذا طلاقة لسانية ، ومقدرة فذّة على الإبانة ، وخبرة جيدة بالكتابة ، فلم يكن محتاجا — والحالة هذه — إلى أن يكتب له غيره ، لولا أن دواعى السياسة ، وازدياد مشاغل الحكم ، وكثرة هموم الإدارة ، قد ألجأته إلى هذا إلجاء ، وليس لذلك من معنى سوى معنى واحد ، وهو أن هذه « الإبانة الكتابية » — سواء كانت مطلقة بأن يتولى الكاتب التعبير والتحبير ، أو مقيّدة بأن يتولّى المرسِل الإملاء والتعبير ، ويتولّى الكاتب التحبير — لم تتأخر حتى عهد عبد الملك بن مروان ؛ وأن اتساع الدولة ، وتعدد شئونها ، وانشغال الخلفاء بأعباء الملك ، وضيق الوقت والجهد عن أن يتولوا كتابة الرسائل بأنفسهم — كلّ هذا لم يكن جديدا فى ولاية عبد الملك ، بل الأحرى أن يقال إنه كان منذ أن فتح الله على المسلمين ما فتحه عليهم من بلاد ، ومنذ أن تراكمت أثقال الإدارة وهموم الرعية إلى حدّ استغرق طاقات الخلفاء الراشدين ومن تلاهم .

واقترن هذا التطور بتطور آخر يتمثل فى نموّ عملية التدوين

---

(١) راجع فيمن كتب للراشدين :
العقد الفريد — ح ٣ — نشرة محمود شاكر الكتبى — ص ١

وما تستتبعه من ازدهار الكتابة الأدبية ، فالكتابة الأدبية - فى تحليلها الأخير - نمط من أنماط التدوين ، وازدهار هذه الأنماط لابد أن ينعكس بآثاره على الكتابة الأدبية بفروعها ، وقد كان من بين الدواعى التى أفضت إلى هذا الازدهار ما هو دينىّ صرف ، كالحاجة إلى فهم كتاب الله أو التطلّع إلى جمع السنة وتوثيقها ؛ ذلك أن تأويل القرآن يقتضي ممن يتصدى له معرفة أسباب نزول الآيات وملابساتها ، وهذه المعرفة بدورها تستلزم نوعا من التأصيل التاريخى ، كما أن العناية بجمع السنة وتدوينها هى فى أساسها « عملية كتابية » ، بالإضافة إلى أنها توفّر طائفة لا بأس بها من الأحاديث التى تتناول حياة الرسول (ص) وغزواته ومعايش أصحابه وسيرهم ، ومن هذه وتلك تكوّنت بواكير كتب السير والمغازى والطبقات ، وجميعها مدوّنات ترتبط ارتباطا وثيقا بتطوّر الكتابة والنثر العربى على وجه العموم .

هذا بالإضافة إلى أنّ تحوّل النظام السياسى فى الإسلام من خلافة تنهض على محورىْ الشورى والديمقراطية فى عهد الراشدين ، إلى ملكية وراثية تنهض على محورى الوراثة وولاية العهد فى عصر الأمويين ، قد أفضى بالخلفاء وأولى الأمر إلى التماس القدوة فيما يقع إليهم من أخبار الملوك الماضين وسيرهم ، وفيما يتسنى لهم من أطوار الأمم الأجنبية وأحوالها فى الحكم والسياسة ، وقد كان يمكن أن يكون للأمويين غَناء من الإسلام وقيمه فى هذا المجال . لولا أن الحوادث كانت قد عصفت بالأساس الأصولىّ للخلافة عصفا ، وجدّ من الحوادث والمشكلات مالم يكن للشخصية العربية مراس بمواجهته من قبل ؛ ولذلك راح معاوية وخلفاؤه من بعده يلتمسون العبرة فى قصص من

سبقوهم ، وينشدون الأسوة فى سلوك الغابرين ، وقد روى المسعودى عن معاوية أنه كان بعد أن يفرغ من عمله « يُؤْذَن للخاصة وخاصة الخاصة والوزراء والحاشية ،فيؤامره الوزراء فيما أرادوا صدرا من ليلتهم ، ويستمر إلى ثلث الليل فى أخبار العرب وأيامها ، والعجم وملوكها وسياستها لرعيتها ، وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة ... ثم يدخل فينام ثلث الليل ، ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها ، والحروب والمكايد ، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتّبون، وقد وُكِّلوا بحفظها وقراءتها ، فتمرّ بسمعه كل ليلة جملة من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات » . (١)

وقد كانت الرغبة فى التأسّى التاريخى على هذا النحو من جملة الأسباب التى أفضتْ إلى نموّ حركة التدوين التاريخى ، ويُذكر فى هذا الباب أنَّ « كتاب الملوك وأخبار الماضين » الذى ينسب إلى عُبَيْد بن شَرِيّة الجرهمى (المتوفى عام ٧٠ هـ تقريبا) ليس إلّا مدوّنة تضمّ الأحاديث والأسمار التى كان يتحدث بها فى مجالس معاوية ، وبالطبع لم يدوّن عبيد هذه الأحاديث والأسمار بنفسه ، وإنما دوّنها كُتّاب معاوية ، ونسبوها إلى صاحبها ، وجعلوها فى تلك الهيئة التى عرفتْ بها باعتبارها مدوّنة تاريخية . ولم يكن «عبيد» نسيج وحده فى هذا الباب ، فقد ألّف زيادُ بن أبيه (المتوفى ٥٣ هـ) كتابا فى

---

(١) المسعودى : مروج الذهب – طبع المطبعة البهية – مصر سنة ١٣٤٦ هـ – جـ ٢ – ص ٧٢ .

وانظر فى نشأة التدوين التاريخى : د . حسين نصار : نشأة التدوين التاريخى عند العرب – مكتبة النهضة المصرية (د . ت) – ص ٨ – ٩ .

مثالب العرب ، وربما كان يقصد به إلى النَّيْل من أولئك الذين طعنوا فى نسبه بعد أن استلحقه معاوية ، كما تنسبه بعض الرواة إلى ابن عبّاس مدوّنات تناول المؤرخون من بعده أطرافا منها .

فإذا تركنا مجال التدوين التاريخى إلى مجال التأليف فى السير والمغازى وجدناهم يتحدثون عن أبان بن عثمان (٢٢ـ١٠٥ هـ) ومدوّنته فى أخبار الرسول ومغازيه ، ثم عروة بن الزبير (٢٣ - ٩٤ هـ) الذى دوّن سيرة الرسول فى رسائل بعث بها إلى عبد الملك بن مروان ، وقد انداحت طائفة من هذه الرسائل فى مؤلفات ابن إسحاق ، والواقدى ، والطبرى ، ثم فى أعمال كعب الأحبار (المتوفى سنة ٣٢ أو سنة ٣٤ هـ) ، ووهب بن منبه (المتوفى سنة ١١٠ هـ) ، وعاصم بن عمر (المتوفى سنة ١٢٠ هـ) ، وابن شهاب الزهرى (المتوفى سنة ١٢٤ هـ) ، وموسى ابن عقبة ، وعوانة بن الحكم ، وغيرهم .

ومن المقطوع به أن ابتداء التدوين التاريخى لم يكن معدوم الصلة باستهلال الحركة التأليفية فيما عدا التاريخ من ألوان العلوم والمعارف . بدليل أن تدوين الأحاديث والسِّير والمغازى والأخبار كان يتواكب مع ظواهر مماثلة فى قطاعات علمية أخرى ؛ فعبيد بن شريّة - الذى دُوِّن له الكتاب التاريخى الآنف الذكر - يضع كتابا آخر فى الأمثال ، يستقطب فيه خلاصة حكمته وحياته المديدة ؛ إذ كان أحد معمّرى العرب وحكمائهم ، كما كان « من القدماء - بتعبير الجاحظ - فى الحكمة والرئاسة والخطابة »(١) . ويسبقه إلى نفس

---

(١) البيان والتبين - جـ ١ - ص ٣٦١ - ٣٦٢ .

الصنيع صحّار بن العيّاش ، الذى يضع كتابا فى الأمثال أيّام معاوية ، فإذا ضممْنا إلى هذا وذاك ما يقال من أن عمر بن عبد العزيز أمر بترجمة بعض الكتب الطبيّة إلى اللغة العربية ، وأن عددا من كتب الكيمياء قد ترجم إلى العربية فى عهد خالد بن يزيد بن معاوية ، أدركنا « أنّ العقل العربى كان يعانى تحوّلا خطيرا ، وأنه أخذ فى التمدّن السريع . والمشاركة فى التدوين والتأليف » (١) ، ولا ريب أن هذا التّمدّن وتلك المشاركة كانا يشكّلان مساحة هامة من الخلفيّة الحضارية والثقافية التى اتّكأت عليها فنون النثر العربى فى هذه الحقبة الأموية .

— ٥ —

وما دام الحديث قد تطرّق بنا إلى الخلفية الحضارية والثقافية التى رفدت فنون النثر العربى فى عصر بنى أمية . فإن مما ينبغى التنويه به ذلك الدور الذى نهضت به مؤثرات الثقافة الأجنبية فى ذلك العصر . ولسنا هنا لنشير فقط إلى وقائع جزئية بعينها . أو أمثلة محدودة بذاتها ، كتلك التى يذكرها ابن النديم حين ينسب إلى صالح بن عبد الرحمن مولى بنى تميم نقْل الديوان من الفارسية إلى

---

(١) د . حسين نصار : نشأة التدوين التاريخى – ص ١١ .

وانظر كذلك فى نشأة الكتابة التاريخية :

د . شوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى النثر العربى – ط ٥ – دار المعارف – ص ١٠٠ – ١٠١

د . أحمد الحوفى : أدب السياسة فى العصر الأموى – ص ٤٣٨ – ٤٣٩ .

العربية (١) ، أو تلك التي يشير إليها أبو هلال العسكرى فى كتاب الصناعتين حين يرى « أنّ عبد الحميد الكاتب استخرج أمثلة الكتابة التى رسمها لمن بعده من اللسان الفارسى فحوّلها إلى اللسان العربى » (٢) ؛ لأن هذه النماذج المحدودة لتأثير الثقافات الأجنبية لم تكن ظواهر عامة فاشية الوجود فى العصر الأموى ، بل كانت وقائع لا تجلّ عن الحصر ، فلم يكن كل من كتبوا فى هذا العصر - أو نثروا بعامّة - موجودين فى مهبّ هذه المؤثرات الأجنبية ، بل ولم يكن معظمهم فى مهبّ هذه المؤثرات ، ولسنا نعلم عمّن شملهم هذا التأثير أو عن مدى ما تأثروا به أكثر مما ذكره ابن النديم أو أبو هلال العسكرى عن سالم أبى العلاء أو عبد الحميد بن يحيى . وكلاهما لم يذع صيته باعتباره كاتبا مرموقا إلّا فى أخريات العصر الأموى ، فأولهما كتب لهشام بن عبد الملك الذى تولّى الخلافة فيما بين عامى ١٠٥ - ١٢٥ هـ ، وثانيهما كان كاتبا لمروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، ومن المعلوم أن ولاية هذا الأخير تقع فيما بين عامى ١٢٧ - ١٣٢ هـ ، ويعنى ذلك أن التأثير الأجنبى فى النثر الأموى لم يتجلّ عبر وسائل فنية بعينها - كبسط الأفكار أو استخدام التحميدات المطوّلة التى عرف بها عبد الحميد بن يحيى - إلّا مع نهايات العصر الأموى .

---

(١) انظر : أبو الفرج محمد بن إسحاق الوراق المعروف بابن النديم - الفهرست - تحقيق جوستاف فلوجل - ليبزج سنة ١٨٧١ - ص ٢٤٢ .

(٢) أبو هلال العسكري : كتاب الصناعتين - الطبعة الأولى - الآستانة سنة ١٣٢٠ هـ - ص ٥١ .

أمّا ما كان موجودا قبل ذلك من مؤثرات الحضارات الوافدة ؛ وهو الجدير بالاعتبار حقا فى مقام الحديث عن الخلفية الثقافية للعصر ؛ فهو تلك الرواسب العقلية والحضارية التى وقعت إلى الفكر العربى من جرّاء احتكاكه الطويل بالأنماط الكبرى للفكر العالمى خلال حركة الفتوح . وما حملته تلك الرواسب من جديد فى طرز المحاجّة وطرق المناقشة ووسائل الجدل والإقناع . وقد ساعد على ذلك أن البيئات الأجنبية التى انتشر فيها العرب خلال حركة الفتوح المذكورة كانت بيئات علم وأدب وحضارة وفلسفة قديمة ؛ فالعراق - مثلا - كان مأهولا ببعض من الفرس . وبعض من القبائل العربية من ربيعة ومضر ، إلى جانب سكانه الأصليين الذين كان منهم نصارى . ومزدكية . وزرادشتية . وبلاد فارس نفسها كان يقطنها - بالإضافة إلى أبنائها من الفرس - أخلاط من اليهود والرومان الذين أسروا فى الحروب الكثيرة التى وقعت بين الفرس والرومان . وكان لأولئك وهؤلاء موروثهم الثقافى . كما كان للفرس أنفسهم موروثهم الثقافى . هذا فضلا عما نقلوه عن الهند والصين ودول الشرق القديم من علوم وآداب ومعارف .

أما إقليم الشام الذى فتح على المسلمين فى مرحلة مبكّرة : فكان بمثابة بوتقة ثقافية انصهرت فيها ألوان المعرفة الرومانية . بالإضافة إلى ما خالط هذه المعرفة من آثار الأمم التى احتكّت بهذا الإقليم . فاعلة ومنفعلة . كالفينيقيين . والآشوريين . والكنعانيين . والفراعنة . والغساسنة . وقد كان لكل من هؤلاء طابعه الثقافى . وكانت له حضارته . التى لابد وأن تخلّف آثارها حيثما مرّت . فإذا جمعنا إلى

ذلك كله فتح مصر ، وما كانت تمثله مصر من وراثة فلسفية وفكرية استقطبت الثقافتين اليونانية والرومانية ، استطعنا أن ندرك طبيعة ذلك المزيج الثقافى المعقّد الذى انتهى إلى العقلية العربية فى تلك الآونة . (١)

ويشير المستشرق الألمانى فون كريمر إلى أبرز تجلّيات هذا التأثير الوافد ممثلة فى أمرين : أولهما فنّ الجدل أو طريقة المناقشة المنطقية التى تأثر فيها العرب برجال الدين الإغريق ، وثانيهما بعض التفاصيل المذهبية التى تأثروا فيها برجال الدين الإغريق وبرجال العلم البيزنطيين .

يقول فون كريمر : « تعلّم العرب أوّلا التفكير الفلسفى باتصالهم برجال الدين الإغريق الذين كانوا يعلمون حقّ العلم فن المناقشة المنطقية وقدّروه أخيرا تقديرا عظيما . ومنهم أيضا تلقوا أوّل درس لهم فى وقائع الأمور المذهبية ؛ وهى فنّ انغمس فيه رجال العلم البيزنطيون . » (٢)

أمّا الطريق الذى سلكه هذا التأثير الإغريقى إلى العرب فكان يمتدّ عبر الشام . وقد كان هذا الإقليم يخضع قبل الإسلام لحكم

---

(١) لمزيد من التفصيل فى المناخ الحضارى والثقافى والمؤثرات الأجنبية فى فكر ذلك العصر ، يراجع :
أحمد أمين : فجر الإسلام — ج ١ — لجنة التأليف والترجمة والنشر — القاهرة سنة ١٩٤٥ — الأبواب الثانى والثالث والرابع . وكذلك : عبد الحكيم بلبع : النثر الفنى وأثر الجاحظ فيه — مكتبة الأنجلو — القاهرة سنة ١٩٥٥ ، ص ١٠٣ وما بعدها .

(٢) فون كريمر : الحضارة الإسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية — تعريب الدكتور مصطفى بدر — دار الفكر العربى — القاهرة (د . ت) ص ٦٦ .

الغساسنة ، وهؤلاء بدورهم كانوا يتحركون فى فلك السياسة البيزنطية ؛ ونظرا إلى أن الحضارة الرومانية البيزنطية كانت فى طابعها العام حضارة مسيحية ممتزجة بأمشاج من الفلسفة الإغريقية ، كان بديهيّا أن نرى كثيرا من العرب الخاضعين لإمارة الغساسنة المذكورة يعتنقون المسيحية بكل ما تسرّب إليها واختلط بها من عناصر الفلسفة اليونانية ورواسب الفكر الإغريقى ؛ حتى إذا جاء الإسلام أقبلوا عليه - عنينا هؤلاء العرب الغسانيين - بكل موروثهم الحضارى والثقافى ؛ وبكل ما وصل إليهم من آثار التفكير الفلسفى عند الإغريق والرومان .

ولعلّ مما شجّع على هذا التأثير أن حملة الثقافة الإغريقية من المسيحيين وغيرهم كانوا يقابلون بتسامح شديد لدُنْ أولى الأمر من بنى أمية ، وقد بلغ بعضهم فى بلاط بعض الخلفاء مكانة قلّما أتيحت لسواهم ، مثل يوحنّا الدمشقى الذى كان نديما ليزيد بن معاوية ، ثم أصبح مقرّبا لدى عبد الملك بن مروان ، وقد كان يوحنّا هذا يتمتع بشهرة عريضة فى عاصمة الأمويين ؛ كما كان كثير النقاش فى مسائل القدر والثواب والعقاب ؛ وكان نقاشه هذا يتمّ بصفة علنية ؛ وبمحضر من الخليفة فى بعض الأحيان ؛ الأمر الذى يعطى انطباعا بأن الصورة الجدلية التى كانت تصبغ هذه المناقشات ربما خلّفت صداها فى الرؤية الفلسفية لدى بعض « أهل الأهواء » أو بعض الفرق الإسلامية التى تكوّنت فى هذه الفترة ، وربما تركت آثارها - أيضا - فى نشر بعض رجال هذه الفرق كتّابا وخطباء وناثرين على وجه العموم .

ويضاف إلى هذا التأثير الإغريقى الذى اتخذ طريقه عبر الشام تأثير آخر كانت مساربه تتم عبر العراق والمناطق الواقعة شرقى شبه الجزيرة العربية على وجه العموم ، عنينا بذلك تأثير اللاهوت المسيحى ممثلا فى عدد من المدارس الدينية التى أنشأتها الكنيسة النسطورية فى العراق ، فمن الثابت تاريخيا أن بعض القبائل العربية قد تحركت من شرقى الجزيرة العربية وجنوبيها لتستقر فى الأراضى الواقعة تحت حكم إمارة الحيرة ، التى كانت بدورها تتبع الفرس من الناحية السياسية . وبدهى لذلك أن تنتقل إلى هذه القبائل العربية بعض روافد الحضارة الفارسية . كما أنه من البدهى أن يتطرق إلى عدد منها تأثير اللاهوت المسيحى ، إلى حد أننا نرى قبائل بكاملها تعتنق المسيحية ، مثل قبيلة تغلب . وحين جاء الإسلام لم تجد هذه القبائل حرجا فى أن تنتقل إليه ومعها كل مذخورها الحضارى والدينى ، كذلك دخل الفرس فى الإسلام بكل موروثهم التاريخى والثقافى ، ومن هؤلاء وأولئك نتج تفاعل بعيد المدى بين مجتمع الإسلام والتيارات الحضارية والثقافية التى أتيح له أن يجاورها أو أن يحتك بها . (١)

فى هذه الخلفية الحضارية والثقافية ينبغى أن نلتمس روافد الثقافات الأجنبية فى هذا العصر ، وهى روافد تضرب بأصولها الأولى إلى فترة الفتوح ، ولا تتأخر ببداياتها إلى نهايات العصر الأموى ، ثم هى روافد مارست تأثيرها فى النثر العربى عبر طريق دائرى طويل ،

---

(١) لمزيد من التفصيل عن المؤثرات الثقافية بالعراق ينظر : المرجع السابق — ص ٧٣ وما بعدها .

ولم تقتحمه مباشرة ، وإليها ينبغي أن يتجه الجهد فى البحث عن المزاج الثقافى والذوق الحضارى للعصر ، بدلا من إهدار الوقت والطاقة فى محاولة إثبات ظواهر بعينها ، مثل تأثير الكتابة الفارسية أو اليونانية فى النثر الأموى ، ثم فى محاولة الخاوص من هذه الظواهر إلى التدليل على أن نشأة النثر العربى لم تكن عربية خالصة ، وأنها مدينة فى عمومها لأولئك أو هؤلاء ممن احتكّ بهم العرب فى طور الانطلاق الذى واكب مطالع الدولة الإسلامية ، وهى المحاولة التى حمل كِبْرها - فى الأساس - عدد من المستشرقين (١) ، والتى لم يكن هذا المفتتح الذى افتتحنا به - جلّه ، أو جملة من أفكاره - إلّا ابتغاء تمحيصها .

- ٦ -

بقيت مسألة أخيرة فى هذا المبحث ، وهى مسألة توثيق المادة العلمية المدروسة ، أو لِنَقُلْ مسألة تأصيل النصوص التى نعتمد عليها فيما نستنبطه من نتائج هذه الدراسة .

ولقضية الأصالة والانتحال عراقة فى تاريخ الأدب العربى ، وهى عراقة استمدتها هذه القضية من تعرّضها لأبرز أجناس القول العربى ، نعنى الشعر ، ولكنها بالنسبة للنثر ربما كانت أقل خطرا وأصغر حجما ؛ لضآلة موروث النثر الجاهلى إذا قيس بالشعر ،

(١) انظر ما سبقت الإشارة إليه من آراء وليم مارسيه فى أصل النثر العربى . وراجع كذلك : د . طه حسين : من حديث الشعر والنثر - المجموعة الكاملة - المجلد الخامس - ص ٥٨٤ .

من ناحية ؛ ثم لتأخُّر مرتبته عموما عن تلك المرتبة التى كان يحتلُّها القول المنظوم فى وجدان الإنسان الجاهلى ، من ناحية أخرى ؛ الأمر الذى يسمح بافتراض أن تكون شبهة النحل فيما ينثر ؛ أقل بكثير عنها فيما ينظم .

فإذا كان المقام مقام الحديث عن النثر الإسلامى والأموى ، فإن أمر الوضع والنحل فيه ليس بمعضل أيضا ؛ لقدم التدوين فى الإسلام ؛ ولأن هذا التدوين ـ كما سبق أن أوضحنا ـ كان معروفا على نحو أوّلى فيما كتب عن الرسول (ص) وخلفائه الراشدين بعده ، من رسائل ومواثيق وعهود . ثم كان معروفا على نحو أكثر سعة فى عصر الأمويين ؛ ومن ثم تتضاءل مظنة الدس والتحريف فى النصوص النثرية لهذه الفترة ؛ لافتراض أنها لم تعتمد على مجرد الرواية الشفوية فى إثباتها . وأنها نقِلَتْ عن مدوّنات ضاعت أُصولها فى جملة ما ضاع من آثار الصدر الأوّل (١) . هذا فضلا عن دورانها فى إطار القريب المعلوم من التراث العربى الإسلامى . الأمر الذى يجعل شبهة الوضع أبعد عن الظن وأقلَّ احتمالا فى الوقوع .

وكلامنا هذا قد يعنى استبعاد الوضع نسبيًا عن نصوص النثر الإسلامى والأموى ، ولكنه لا يعنى ـ بالقطع ـ نفى هذا الوضع نفيا مطلقا ؛ فبعض هذه النصوص لا يخلو من خطأ . وبعضها لا ينجو من تلفيق هنا أو هناك . وبعضها وضع برمّته لبواعث قبلية أو سياسية أو مذهبية . وليس خافيا أن هذه الفترة قد شهدت من تباين الأهواء

---

(١) انظر : تطور الأساليب النثرية ـ الجزء الأول ـ ص ٩٩ .

وتوزُّع الفرق والأحزاب مالم تشهده سواها من فترات التطور فى بنية المجتمع الإسلامى ؛ ومنطقى أن يكون لكل فرقة أو حزب من المصالح ما يتناقض مع مصالح الآخرين ؛ ومن ثم ينفسح المجال لدسّ رأى ، أو تزييف مقولة ، أو نحل خطبة ، أو وضع رسالة ، وإن يكنْ نقد النصّ ، متنا وإسنادا ، كفيلا فى كل الحالات بالتمييز بين الصحيح والموضوع ، والتفرقة بين الأصيل والمنحول .

ومن نماذج الوثائق الكتابية التى لا تسلم من مظنّة ؛ ما يرويه الطبرى من خطاب يزيد بن معاوية – حين بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه فى رجب سنة ٦٠ هـ – إلى الوليد بن عتبة والى المدينة ، ولم يكن ليزيد حينئذ من همّ إلّا بيعة أولئك الذين رفضوا الإجابة إلى بيعته حين دعاهم إليها أبوه ، فكتب إلى أمير المدينة المذكور يستحثّه على أخذ بيعة هؤلاء الرافضين دون هوادة أو ترخّص ؛ قائلا له بعد الديباجة :

أمّا بعد ، فخُذْ حسينا ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، بالبيعة أخذا شديدا ليس فيه رخصة ، حتى يبايعوا والسلام . » (١)

فهذا الخطاب الذى أورده الطبرى بهذه الصورة المختصرة ، التى لا تخلو على قصرها من عنف وحسم ؛ يورده ابن قتيبة فى «الإمامة

(١) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى – تاريخ الطبرى – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – جـ ٥ – دار المعارف – مصر سنة ١٩٦٣ – ص ٣٣٨ .

والسياسة » موجّها « إلى خالد بن الحكم ، وهو عامل المدينة » : ويثبت نصه على نحو أقلّ عنفا وقسوة ، وأكثر بسطا وتفصيلا ، وفيه نقرأ :

« أما بعد : فإن معاوية بن أبي سفيان كان عبدا استخلفه الله على العباد ، ومكّن له فى البلاد ، وكان من حادث قضاء الله — جلّ ثناؤه وتقدّست أسماؤه — فيه ما سبق فى الأوّلين والآخرين : لم يُدْفع عنه ملك مقرّب ، ولا نبيّ مرسل ، فعاش حميدا ، ومات سعيدا ، وقد قلّدنا الله عز وجل ما كان إليه ، فيالها مصيبة ما أجلّها ، ونعمة ما أعظمها ، نقل الخلافة ، وفقد الخليفة ، فنستوزعه الشكر ، ونستلهمه الحمد ، ونسأله الخِيرة فى الدارين معا ، ومحمود العقبى فى الآخرة والأُولى : إنّه ولى ذلك ، وكل شيء بيده لا شريك له .

وإنّ أهل المدينة قومنا ورجالنا ، ومن لم نزل على حسن الرأى فيهم ، والاستعداد بهم ، واتّباع أثر الخليفة فيهم ، والاحتذاء على مثاله لديهم ، من الإقبال عليهم ، والتقبُّل من محسنهم ، والتجاوز عن مسيئهم ، فبايع لنا قومنا ومَنْ قِبَلَك من رجالنا بيعة منشرحة بها صدوركم ، طيِّبة عليها أنفسكم ، وليكن أوّل من يبايعك من قومنا وأهلنا الحسين ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله ابن الزبير ، وعبد الله بن جعفر ، ويحلفون على ذلك بجميع الأيمان اللازمة ، ويحلفون بصدقة أموالهم غيْر عُشْرها ، وحرية رقيقهم ، وطلاق نسائهم ، بالثبات على الوفاء بما يُعْطون من بيعتهم ، ولا قوّة إلّا بالله والسلام . » (١)

(١) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى :
الإمامة والسياسة — جـ ١ — نشر المكتبة التجارية — مصر (د . ت) — ص ١٨٦ .

وأوّل ما يلفت النظر من مظاهر التحريف – ولا نقول الانتحال الكامل – فى هذا النص أن خالد بن الحكم الذى وجّهت إليه الرسالة ليس له وجود ، أو على الأقل لم يكن له وجود رسمي باعتباره واليا على المدينة فى الآونة المشار إليها ؛ ولعل المقصود به مروان بن الحكم ، وهو خطأ أيضا ؛ لأن مروان بن الحكم لم يكن واليا على المدينة حين وفاة معاوية ، بل كان واليه عليها – كما سلف الذكر – الوليد بن عتبة بن أبي سفيان .

أمّا ثانى ما يلفت النظر فى هذه الرسالة فهو روح المودّة والعطف الغريب من يزيد بن معاوية تجاه المدينة وأهلها بعامة ، وتجاه الصفوة من الهاشميين المقيمين بها بخاصة . « قومنا ورجالنا ومن لم نزل على حسن الرأى فيهم » ، مع أن جيشه فى مرحلة لن تكون بعيدة سيدك هذه المدينة دكّا . وسيقتّل من « قومه » خلقا كثيرا !!.

ثم ذلك الحرص المريب على التذكير بالأواصر – نخشى أن نقول : الحرص المريب على افتعال الأواصر – بين صاحب الرسالة ومن يطلب بيعتهم من وجوه المسلمين : « وليكن أوّل من يبايعك من قومنا وأهلنا الحسين وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن جعفر » ، ولسنا نعلم متى كان الحسين من « قوم يزيد وأهله » ، وهو الكاتب عنه – أى عن يزيد – إلى أبيه معاوية : « واعلم أنّ الله ليس بناسٍ لك قتلك بالظِّنَّة ، وأخذك بالتهمة ، وإمارتك صبيّا يشرب الشراب ، ويلعب بالكلاب (١) . » ؟ !!

(١) المصدر السابق – حـ ١ – ص ١٦٥ .

ولسْنا ندرى – أيضاً – إلى أىّ مدًى كان هوى ابن قتيبة أمويًا حتى يجلو « يزيد » فى هذه الصورة المتحرجة المتحننة الحريصة على أواصر الرحم وذمام القربى ، حتى لو كان التذكير بهذه الأواصر والتلويح بهذا الذمام وسيلة للحثّ على البيعة . وإن كنّا – فى التحليل الأخير – لا نملك إلاّ أن نشكّ فى هذه الصيغة الثانية التى ورد بها الكتاب ، ونؤثر عليها الصيغة الأُولى ، وبخاصة أن بعض مظاهر الصنعة تبدو جليّة فى الصيغة المشكوك فيها ، وهى مظاهر نستبعد أن تكون من السمات العامة للكتابة العربية فى هذه الحقبة المبكرة من العصر الأموى ، ومن تلك المظاهر هذا السجع الواضح فى قوله : « استخلفه الله على العباد ، ومكن له فى البلاد . . . عاش حميداً . ومات سعيداً . . » .

ومن نماذج الكتب المشكوك فيها ما روى عن الخليفة عبد الملك ابن مروان ، وقد بلغه تعرّض الحجاج بن يوسف الثقفى لأنس بن مالك خادم رسول الله (ص) ؛ إذ غضب عبد الملك غضباً شديداً . وكتب إلى عامله الأثير لديه ، مقرّعاً ومؤنّباً :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف . أما بعد ؛ فإنك عبد طَمَتْ (١) بك الأُمور فطغيت . وعلوْتَ فيها حتى جاوزت قدرك ؛ وعدوْت طورك (٢) ؛ وايْمُ الله يابن المستفرمة بعجم زبيب الطائف : لأَغْمِزنَّك كبعض

---

(١) طمت : علت .
(٢) عدوت طورك : جاوزت حدك .

غمزات الليوث الثعالبَ ، ولأَرْكُضَنَّكَ ركضة تدخل منها فى وجارك (١) . اذْكر مكاسب آبائك بالطائف ، إذْ كانوا ينقلون الحجارة على أكتافهم ، ويحفرون الآبار والمناهل (٢) بأيديهم . فقد نسيت ما كنت عليه أنت وآباؤك من الدناءة واللؤم والضراعة . وقد بلغ أميرَ المؤمنين استطالةٌ منك على أنَس بن مالك ، خادم رسول الله صلَّى الله عليه وسلم ، جرأةً منك على أمير المؤمنين ، وغِرةً (٣) بمعرفة غِيَره (٤) ونِقْماته وسطواته على من خالف سبيله ، وعَمَدِ إلى غير محَجّته (٥) ، ونزل عند سخْطته . وأظنُّك أردتَ أن تَرُوزه (٦) بها ؛ لتعلم ما عنده من التغيير والنَّكير فيها ؛ فإنْ سُوِّغْتَها (٧) مضيتَ قُدُماً ، وإن غَصَصْتَ (٨) بها ولَّيتَ دُبُرًا . فعليك لعنة الله من عبْد أخْفَش (٩) العينين ، أصكُّ الرِّجْلين ، ممسوح الجاعِرتين (١٠) . وايمُ الله لوْ أنَّ أمير المؤمنينَ علم أنك اجترمْتَ منه جرماً ، وانتهكْتَ له عرضاً فيما كتب به إلى أمير المؤمنين ، لبعث إليك من يسحبك ظهرًا لبطن ، حتى ينتهى بكَ إلى أنَس بن مالك ، فيحكم فيكَ بما أحب . ولن يخفى على أمير المؤمنين نبؤُك . ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون » . (١١) .

---

(١) الوجار : جحر الضبع وغيرها .
(٢) المناهل : جمع منهل ، وهو المشرب .
(٣) غرة : اغتراراً وجهلا .
(٤) الغير : الأحوال والأحداث .
(٥) المحجة : جادة الطريق .
(٦) تروزه : تختبره .
(٧) سوغتها : أقررت فيها على ما فعلت .
(٨) فى الأصل « وإن بغضتها » ، والتصحيح من « جمهرة رسائل العرب » - ج - ٢ ص ٢٤٧ .
(٩) أخفش : من الخفش ، وهو ضيق فى العين وضعف فى البصر .
(١٠) الجاعرتان : مضرب الفرس بذنبه على الفخذين .
(١١) النص منقول من : العقد الفريد - ج ٣ - طبعة الكتبى - ص ٢٤٧ .

وقد أرجع بعض الباحثين (١) شبهة الوضع فى هذا الكتاب إلى أسباب تاريخية وسياسية تلخصها مكانة الحجاج لدى بنى مروان ، وسابق أياديه عندهم ، وموفور خدماته لهم ، واستبعاد أن يخاطبه عبد الملك بتلك العبارات التى تقطر جهامة وغلظة ، والتى لا تخلو من استطالة تبلغ حد الإساءة الصريحة ، كقوله : « عليك لعنة الله من عبد أخفش العينين . أصكّ الرجلين . ممسوح الجاعرتين » . أو قوله : لبعث إليك من يسحبك ظهراً لبطن » ، فمثل تلك النبرة إن صلحت للعامة وأوساط الناس، فإنها لا تليق بشخصية أمير أو قائد ، فما بالك إذا كانت لهذا الأمير قامة الحجاج ومكانته وحسن بلائه فى ترسيخ دعائم العرش المروانى ، على الرغم من بطشه وعنف سياسته للرعية ؟ !!

ونضيف إلى ذلك باعثاً آخر يدفع إلى الشك فى صحة هذه الوثيقة بالذات ، وهذا الباعث يتمثل فى تناقض الروايات التى تروى بها ، واختلاف الأشكال التعبيرية التى صيغت فيها ، مع إضافة هنا وحذف هناك ، مما يجعل قبولها غير مقرون بالارتياح الكامل . وآية ذلك أن تلك الرواية المطوّلة التى يوردها صاحب العقد الفريد تقابل عند الجاحظ بهذه الرواية المختصرة التى تقع فى نفس ظروف وملابسات الأولى : « بسم الله الرحمن الرحيم . يابْن المستفرمة بحبّ الزبيب . والله لقد هممتُ أن أركلك ركلة تهوى بها إلى نار جهنم . قاتلك اللهُ أخيفش العينين . أصكّ الرجلين . أسْود الجاعرتين . والسلام » (١) . وهى تنحو منحى الرواية الأولى فى ضراوة النبرة وشراسة الخطاب ، وإن كانت

---

(١) أنيس المقدسى فى : تطور الأساليب النثرية — ج ١ — ص ١٠٧ .

(٢) الجاحظ : البيان والتبيين — تحقيق عبد السلام هارون — ج ١ — ص ٣٨٦ .

أكثر إيجازاً وأشد قصداً ، ولكنها مع ذلك بعيدة عن مستوى التوجّه إلى من كان فى مقام الحجاج ، وأغلب الظن أنها مِن دسّ بعض الناقمين عليه ؛ وما أكثرهم .

ومن هذا وأمثاله يتجلى بوضوح أن النثر الأموى ؛ وهو المادة العلمية لهذه الدراسة ، لا يخلو من بعض المعاناة فى التوثيق ؛ إذْ قَدْ يناله ما ينال جزئيات التراث من تحريف أو خطأ أو وهم أو وضع . على أن ذلك كله لم يكن حائلا بين الشعر – مثلا – والدراسة . وهو بنفس القدر لا ينهض حائلا بين النثر والدراسة ، لا سيّما أن مواطن الخطأ أو التحريف أو الوضع لا يتعذر تمييزها ؛ « إذا جرينا على قاعدة النقد والتجريح ، فطرحنا منه ما يناقض الأوضاع التاريخية والاجتماعية والإنشائية لذلك العهد ، وتردّدنا فى قبول ما يشتمّ منه رائحة التحزب والدعاية . وإذا ذكرْنا أن التدوين كان شائعاً فى القرن الهجرى الأوّل ، وأن الرواية متصلة بين العهدين العباسى والأموى، لم يبق أمامنا مانع كبير من قبول كثير من النصوص المنحدرة إلينا من صدر الإسلام » .

وإذا لم يكن من هذا « القبول » مانع بالنسبة إلى نصوص الصدر الإسلامى ، فليس منه – بقياس الأولوية – مانع بالنسبة إلى نصوص العصر الأموى ، وهى محور النظر فيما يلى من مباحث هذه الدراسة .

---

(١) تطور الأساليب النثرية – جـ ١ – ص ١٠٨ .

الباب الأول

أدب الكتابة

في العصر الأموي

أنماطه ودلالاته

الفصل الأول

توظيف الرسالة

قد لا يكون من قبيل المصادرة أن نزعم أن نشأة الظواهر الأدبية وازدهارها يرتبطان ارتباطاً حميماً بالوظيفة التي تنهض بها كل ظاهرة من هذه الظواهر ؛ فالشكل الأدبي والوظيفة الاجتماعية طرفا علاقة وثيقة واسطتها اللغة ، والإشارة إلى اللغة في هذا المقام ليست من قبيل تحصيل الحاصل بقدر ما هي إشارة إلى الصورة الفنية التي لا يكون الأدب أدباً بدونها ؛ لأن الحياة الاجتماعية إنما تتعامل مع الأدب « بمظهرها الكلامي قبل كل شيء (١) » .

وآية ذلك أن أدب الرسالة في العصر الأموي يتواكب مع بعض الغايات المستحدثة ، والتي لولاها لم يكن هذا الجنس الأدبي ليزدهر كل هذا الازدهار الذي شهده ذلك العصر ، ومن بين هذه الغايات : توظيف الرسالة في تدوين الحقائق التاريخية ، وهي غاية جديدة على هذه الحقبة بكل المقاييس ، ولم تكن لتوجد لولا حرص الخلفاء والأمراء على التماس العبرة في أخبار الماضين، ونشدان العظة والتأسي في مسالك الأمم وتصرفات الغابرين . وبسبب هذا الحرص نرى عبد الملك

---

(١) شومسكي والنظرية الأدبية : الفكر العربي المعاصر - بيروت - العددان ٦ ، ٧ سنة ١٩٨٠ - ص ١٠٢ . والاقتباس المذكور من تينيانوف Tynianov .

ابن مروان يطلب من عروة بن الزبير (المتوفى سنة ٩٤ هـ) أن يوافيه بتفصيل بعض الوقائع والأحداث ، فيقوم عروة بتسجيل هذه الوقائع والأحداث فى رسائل يبعث بها تباعاً إلى الخليفة فى دمشق ، وقد بقيت بعض هذه الرسائل فى صفحات ابن إسحاق ، والواقدى ، والطبرى ، وموضوعاتها فى مجملها تدور حول سيرة الرسول (ص) ، ومغازيه وأخباره ، ومنها ما يتعلق بهجرة الحبشة ، أو بموقعة بدر ، أو بفتح مكة ، كما أنَّ منها ما يتناول وفاة السيدة خديجة ، وهجرته (ص) إلى المدينة ، ولكنها ، على وجه العموم ، وعلى اختلاف موضوعاتها ، « تمثل — بتعبير بعض الباحثين — أقدم المدوّنات التى وصلت إلينا عن بعض الحوادث الخاصة فى حياة النبى ، كما تمثل أقدم آثار الكتابة التاريخية العربية » (١) .

وفى رسائل عروة التاريخية تظهر جملة المؤثرات الدينية والعلمية والتراثية التى انعكست على النثر العربى فى هذه الفترة ، فمن المؤثرات الدينية إفادته من توثيق السنة النبوية فى العناية بإسناد ما يتحدث عنه أو يرويه ، ثم اهتمامه بمواطن البيان القرآنى فى الاستشهاد بها على ما يشير إليه من وقائع وأحداث . ومن المؤثرات العلمية اعتماده بصفة خاصة على الوثائق المكتوبة ، ومحاولة الاستدلال بها على الرأى أو الخبر أو الفعل ، مما يحمل التفاتاً مبكراً إلى قيمة الوثيقة فى التدوين التاريخى ، وإن كانت هذه النزعة العلمية لم تَحُلْ بينه وبين الخضوع لرواسب التراث متمثلة فى الاقتباسات الشعرية التى ترد خلال الأحداث أو تدور

---

(١) د . حسين نصار : نشأة التدوين التاريخى عند العرب — ص ٣١ — ٣٢ .

على ألسنة الشخصيات ، فتذكرنا بالنمط التراثى الأثير فى رواية التاريخ الجاهلى (١) .

ولأن توظيف الرسالة هذا التوظيف التاريخى كان قد بدأ فى الأصل بمبادرة من عبد الملك بن مروان واقتراح منه : فإن كتب عروة لا تتحرج من الإشارة إلى هذا الظرف ، بل هى تبدأ به عادة ، على طريقة التساؤل التى تطالعنا فى القصص القديم ، وفى مقدمات الليالى – « ألف ليلة وليلة » – على وجه الخصوص : مثل تلك الرسالة التى يتحدث فيها عن موقعة « بدر » وملابساتها ، ويستهلها بمخاطبة الخليفة ، كاتباً بعد الديباجة :

أما بعد ، فإنك كتبتَ إلىّ فى أبى سفيان ومخرجه ، تسألنى كيف كان شأنه ؟ كان من شأنه أن أبا سفيان بن حرب أقبل من الشام فى قريب من سبعين راكباً من قبائل قريش كلها . كانوا تجاراً بالشام ، فأقبلوا جميعاً معهم أموالهم وتجارتهم . فذُكِروا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وقد كانت الحرب بينهم قبل ذلك فقتِلت قتلى ، وقُتِل ابن الحضرمى فى ناس بنَخْلة . وأُسِرتْ أسارى من قريش فيهم بعض بنى المغيرة وفيهم ابن كيسان مولاهم ، أصابهم عبد الله بن جحش وواقد حليف بنى عدى بن كعب فى ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعثهم مع عبد الله بن جحش ؛ وكانت تلك الوقعة هاجت الحرب بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش ، وأول

(١) انظر المرجع السابق – ص ٣٣ .

ما أصاب به بعضهم بعضاً من الحرب ، وذلك قبل مخرج أبى سفيان وأصحابه إلى الشام » (١) .

ومن الواضح أن طريقة عروة فى كتابة رسائله التاريخية تجنح إلى فلسفة الواقعة بذكر أسبابها وبواعثها . فهو يربط بين غزوة بدر وبعض المناوشات التى سبقتها وأفضت إليها ، مثل مقتل ابن الحضرمى ، وإيقاع عبد الله بن جحش وجماعته ببعض قريش وأسر فريق منهم : « فهذا أوّل ما أصاب به بعضهم بعضاً من الحرب » .

بيد أن العلاقة بين سرد المقدمات واستخلاص النتائج لم تكن لديه على المستوى الأمثل فى الترتيب . فهو يذكر مقدم أبى سفيان من الشام . وعدد من كان معه من قريش . وعلم الرسول (ص) بقدومهم ، ثم ينعطف كرة أخرى إلى ما كان بين الفريقين من بواكير الاحتكاك . هذا إلى أن أسلوبه فى الحكاية والتعليق لا يخلو من حياديّة النظر وتجرّد الفطرة التى تتهيأ لكى تكون صنعة تاريخية فيما بعد . وإن كان الحياد والتجرد قد ألجآه إلى ما يتّسم به الأسلوب العلمى من المباشرة — نوشك أن نقول : الجفاف — والقصد إلى المراد من أقرب طريق .

وغير بعيد عن توظيف الرسالة فى التدوين التاريخى توظيفها فى تقنين ما يستحدث من أوضاع المسلمين . وفى حلّ بعض مسائل الخراج والفقه المالى . والفتيا أو التشريع فيما لم يسبق فيه فتيا أو تشريع من

---

(١) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى — تاريخ الرسل والملوك — دار المعارف — مصر — سنة ١٩٦١ — جـ ٢ — ص ٤٢١ .

قضايا الفرد والجماعة ، وبخاصة إذا كان هذا التقنين أو التشريع صادراً عمن يملك من الناحية الرسمية حق التقنين والتشريع ، نعنى الخليفة أو من ينوب عنه .

والسر فى ذلك أن منصب الخلافة — من الناحية الأُصولية — لم يكن منصباً سياسياً وحسب ، بل كان منصباً سياسياً وروحيًا فى نفس الوقت ، كما أن أمور المسلمين وأوضاع مجتمع الخلافة قد طرأ عليهما من الأحوال والوقائع ما لم يرد فيه نصّ صريح من كتاب أو سنة ، ومن ثم كان تصدّى الخليفة لهذه الأحوال والوقائع أمراً ضرورياً للحيلولة بين جماعة المسلمين وأن تقع فى مهاوى الاضطراب والبلبلة . وقد كان هذا التصدّى يتمّ فى كثير من الأحيان عن طريق الرسائل والوثائق المكتوبة ، يبعث بها الخليفة إلى عماله ، أو إلى أهل الأمصار . وهكذا وُظِّفت الكتب توظيفاً تشريعياً وفقهياً . مثلما وظفت — فيما أسلفنا — توظيفاً تاريخياً . وأقرب الشواهد على ذلك ما بعث به الخليفة عمر ابن عبد العزيز إلى واليه على الكوفة ، عبدالحميدبن عبد الرحمن بن زيد ابن الخطاب ، فى شأن من يسلمون من نصارى الحيرة ويهودها ومجوسها ، وهل تؤخذ منهم الجزية كحالهم فيما سبق إسلامهم ، أو تسقط عنهم وتؤخذ الصدقات كما تؤخذ من أى مسلم ، وقد حسم عمر هذه المسألة بمقولته المشهورة : « إن الله بعث محمداً داعياً ، ولم يبعثه جابياً » ، وكتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن : « كتبتَ إلىّ تسألنى عن أناس من أهل الحيرة ، يسلمون من اليهود والنصارى والمجوس ، وعليهم جزية عظيمة ، وتستأذننى فى أخذ الجزية منهم ، وإن الله جل ثناؤه بعث محمداً (ص) داعياً إلى الإسلام ، ولم يبعثه جابياً ، فمن أسلم من

أهل تلك المِلل فعليه فى ماله الصدقة ، ولا جزية عليه ، وميراثه لذوى رحمه إذا كان منهم ، يتوارثون كما يتوارث أهل الإسلام ، وإن لم يكن له وارث فميراثه فى بيت مال المسلمين الذى يقسّم بين المسلمين ، وما أحدث من حدث ففى مال الله الذى يقسم بين المسلمين يُعقل عنه منه . (١) » .

ويبدو أن سياسة الذمّيين والأوضاع المالية لأهل الكتاب كانت تشكلّ قضية متجددة بالنسبة للإدارة الأموية ، بسبب اتساع رقعة الأقاليم المفتوحة ، وكثرة من انضوى من أهل الذمة تحت لواء الدولة الإسلامية ، ثم لوفرة من سارع منهم إلى الإسلام ، حاملا معه بعض التزاماته المالية القديمة ، من جزية أو خراج ، الأمر الذى مثّل لبعض الولاة عدداً من المشكلات المالية التى كانوا يكتبون إلى الخليفة ملتمسين عنده حلولا لها . فكانت الرسائل بين الجانبين صيغة مثلى للحوار والتفاهم . ولم يكن ما حدث بين عمر وعبد الحميد بن عبد الرحمن هو النموذج الوحيد فى هذا المقام . فقد كتب إليه حيّان بن شريح واليه على جند مصر . شاكياً إليه نفس الشكوى : « أمّا بعد ، فإن الإسلام قد أضرّ بالجزية حتى تَسَلَّفْتُ من الحارث بن ثابتة عشرين ألف دينار أتممت بها عطاء أهل الديوان . فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بقضائها فعل » . ولم يكن ردّ عمر عليه ليختلف كثيرا عن ردّه على عبد الحميد بن عبد الرحمن ، بل كان يتّسم بنفس الوضوح والإيجاز وسرعة البتّ ، دون مواراة سياسية أو مواربة إدارية :

(١) يعقل عنه : يدفع عنه ما عليه من دية . وانظر أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم : كتاب الخراج – نشر المكتبة السلفية – القاهرة سنة ١٣٩٢ هـ – ص ١٤٢ .

« أما بعد ، فقد بلغني كتابك ، وقد ولَّيتُك جند مصر وأنا عارف بضعفك ، وقد أمرتُ رسولى بضربك على رأسك عشرين سوطاً ، فضع الجزية عمّن أسلم ، قبحّ الله رأيك ، فإن الله إنما بعث محمداً (ص) هادياً ولم يبعثه جابياً ، ولعَمرِى لَعُمَرُ أشقى من أن يدخل الناسُ كلهم الإسلام على يديه » . (١) .

ولم يقتصر استخدام الرسائل على الفُتيا فى الشئون الإدارية والمالية ، بل تعدّى ذلك إلى توظيفها فى جلاء بعض الأُمور الفقهية التى كانت تلتبس على أهل الأَمصار حتى يُحتاج فيها إلى حسم من الخليفة نفسه ، وقد أسهمت هذه الكتب الفقهية فى معالجة قضية الأَنْبِذة ، التى ثارت — كذلك — فى عهد عمر بن عبد العزيز ، والتى بلغ من التباسها أنْ تدخّل الخليفة بنفسه لتقرير وجه الصواب فيها من الناحية الفقهية ، وقد كان الناس — زمناً — يروْن الطِّلاء (وهو ما طبِخ من عصير العنب) ممّا لا ضير عليهم فى شربه ، ما دام لم يُنْبَذْ فى الجرار والأَوعية المزَفّتة التى نهى الرسول (ص) عن شرب ما جُعِل فيها ، ولكنّ عمر رأى فى ذلك باباً من أبواب الشر ينبغى إغلاقه ، فضلا عن اتخاذه ذريعة للعدوان على الأَعراض والأَنفس والأَموال ، ولذلك كتب إلى أَهل الأَمصار رسالته المشهورة فى الأَنْبِذة ، والتى أوردها صاحب العقد الفريد كاملة ، ومنها ما يـــلى :

---

(١) تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد المعروف بالمقريزى : كتاب الخطط ، المسمى بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار — مصر سنة ١٣٢٤ هـ — الجزء الأول — ص ١٢٥ .

« أما بعد ، فإن الناس كان منهم فى هذا الشراب المحرّم أمر ساءت فيه رغبة كثير منهم ، حتى سفّه أحلامهم ، وأذهب عقولهم ، فاستُحِلّ به الدم الحرام ، وفرج الحرائر ، وإنّ رجالا منهم ممن يصيب ذلك الشراب يقولون : شربْنا طِلَاءً ، فلا بأس علينا فى شربه ، ولعمْرى إن فيما قرأتُ ممّا حرم الله بأسا ...

وقد أردتُ بالذى نُهيتُ عنه من شرب الخمر ، وما ضارع الخمر من الطلاء ، وما جُعِل فى الدُّبّاء (١) والجِرار والظروف المزَفّتة وكلّ مسْكِر ، اتخاذ الحجة عليكم ، فمن يطع منكم فهو خير له ، ومن يخالف إلى ما نُهِى عنه نعاقبه على العلانية ، ويكفينا اللهُ ما أسرّ ، فإنه على كل شىء رقيب ، ومن استخفى بذلك عنّا ، فإنّ الله أشدّ بأسا وأشد تنكيلا . » (٢)

وليس من مُعاد القول أن نلحظ فى هذا النوع من الرسائل ما لحظناه فى سابقه من رسائل التدوين التاريخى ، من القصد فى العبارة ، والمباشرة فى الأداء ، مع اتّكاء على التذكير برقابة الله ، واطّلاعه على السرّ والعلن ، ونكاله بمن خالف عن أمره ، ومع ميل واضح إلى التفكير بالقرآن : « فمن يطع منكم فهو خير له ، ومن يخالف إلى ما نُهِى عنه نعاقبه » ، أو استخدام وحداته التعبيرية استخداما صريحا : « فإنه على كل شىء رقيب ، فإن الله أشد بأسا وأشد تنكيلا . » ، وتلك سمات لا تنفرد بها الرسالة الفقهية ، بل تكاد

(١) الدباء : أوعية تنبذ فيها الخمر حتى تغلى سريعاً وتسكر .

(١) العقد الفريد — جـ٤ — طبعة محمود شاكر الكتبى وسيد مسلم — مصر — سنة ١٩١٣ — ٣٣٣

تكون من الملامح المشتركة فى الرسائل ذات الطابع المعرفى على وجه العموم .

والربط بين الرسالة باعتبارها وثيقة أدبية ، والوظيفة المنوطة بها function باعتبارها غاية اجتماعية ، لا يعنى تمحض أدب الكتابة الأموية لأداء أهداف موضوعية خالصة ، سياسية أو قبلية أو مذهبية ، ففى أحيان كثيرة تزدوج الوظيفة الاجتماعية بدلالات إنسانية ونفسية ، بحيث تشفّ الوثيقة المكتوبة عن طبيعة كاتبها وخبراته الذاتية وقسمات شخصيته ومزاجه النفسى الخاص ، والذى يقرأ بعض الرسائل المتبادلة بين عبد الله بن الزبير ومعاوية بن أبى سفيان لن يقف فقط على طبيعة الموضوع الذى يتحاوران بشأنه ، بل سيلمس جهارة الشخصية الأولى واستواءها وانفعالها بالأحداث انفعالا فوريًا ومباشرا ، على حين سيلمس مرونة الشخصية الثانية وقدرتها على التحكّم فى بدوات النفس . ولنقرأ رسالة عبد الله بن الزبير إلى معاوية : وقد كانت للأخير أرض مجاورة لأرض ابن الزبير ، فدخل رجال معاوية فى أرض ابن الزبير فأفسدوا فيها . فكتب إلى معاوية :

« أمّا بعد ، فإنّه يا معاوية إن لم تمنع عبيدك من الدخول فى أرضى وإلّا كان لى ولك شأن . »

ولنلتفت إلى أنّ هذا التهديد السافر يصدر عن واحد من الرعية إلى الخليفة ، وأنه يتوجّه من الأدنى — على الأقل من الناحية الرسمية — إلى الأعلى ، وعلى الرغم من ذلك نرى أسلوب الردّ يلين ويرقّ إلى حد يستلّ سخيمة المرسِل الأول ويطفىء غضبه : «وقفتُ على كتابك يابن

حواريّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وساءنى والله ما ساءك ، والدنيا هيّنة عندى فى جنْب رضاك ، وقد كتبتُ على نفسى رقْما (١) بالأرض والعبيد ، وأشهدتُ علىّ فيه ، ولْتضف الأرض إلى أرضك، والعبيد إلى عبيدك ، والسلام . » (٢)

فنى مقابل المخاطبة بالاسم مجردا : « يامعاوية » ، ترى الردّ بتلك النسبة العزيزة إلى النبي (ص) : «يابْن حواريّ رسول الله » ، وفى مقابل الوعيد الجهير،ترى المجاملة بإظهار الحزن والمشاركة فى الألم : « ساءنى ما ساءك » ، بل ترى الترقّ فى هذه المجاملة إلى حد التنازل كليّة عن الأرض موضوع النزاع بين الرجلين ، فهل ترى بعدُ أبلغ من الأسلوبين فى الدلالة على البنية النفسية لكلٍّ من الخصمين العريقين ؟ !! .

ومن أفصح رسائل العصر الأموى دلالة على نفسية صاحبها كأنما تقرأ من خلالها فى كتاب مفتوح ، تلك التى كانت تصدر عن الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز ، وقد كان من الصراحة مع النفس ومع الآخرين بحيث يمكن اعتبار كتابته مرآة تبصر فيها فطنته وفقهه وورعه واستمساكه بروح الدين فى معاملاته مع ولاته ورعيّته ، هذا إلى خبرة بأهواء النفوس ومنازع الطباع تنأى بهذه الصراحة عن الغفلة ، وتجعل منها نوعا من الدّربة الحكيمة ، وقد كان عامله

(١) الرقم : الكتاب .
(٢) تقى الدين ابن حجة الحموى : ثمرات الأوراق – المطبعة الوهبية – مصر سنة ١٣٠٠ هـ ص ١١٨ .

على البصرة عَدِىّ بن أرطاة لا يفتأ يراجعه فيما يعنّ من قضايا المسلمين فى ولايته ، ويكثر من سؤاله فى الصغيرة والكبيرة ، كأنما يريد استعراض ولائه لخليفته ، أوْ كأنما يبغى المبالغة فى إعظام أمير المؤمنين حين يبوء بكل أمر إليه ، فلم ير عمر فى هذا إلّا ضربا من الزلفى الممجوجة ، على المستوى الخلقى ، ثم لم ير فيه إلّا أثرا من آثار المركزية المرفوضة ، على المستوى الإدارى ، وكتب إلى عامله : « أما بعد ، فإنك لن تزال تُعنىّ (١) إلىّ رجلا من المسلمين فى الحر والبرد يسألنى عن السنّة ، كأنك إنما تُعَظِمنى بذلك ، وايْمُ الله لحسْبُكَ بالحسن (٢) ، فإذا أتاك كتابى هذا فَسل الحسن لى ولك وللمسلمين ، فرحِم الله الحسن ، فإنه من الإسلام بمنزل ومكان ، ولا تُقْرِئَنَّهُ كتابى هذا ..» (٣)

وإذا كان هذا الكتاب يكشف — فوق دلالته على الدربة النفسية العميقة — عن سمة التواضع فى شخصية الإمام العادل ، فإن هذه السمة لم تكن لتنبعث لديه عن رخاوة فى الطبع ، أو تهيّب فى اتخاذ القرار ، أو ضعف عن الإقدام فيما يراه حقا . وهنا أيضا تشهد كتابته (مرآة شخصيته) بأن جرأته فى تنفيذ ما كان يرتئيه صوابا ربّما فاقت جرأة سابقيه ، بل ربّما كان فيها بعض التجاوز للتقاليد التى لم يجازف سابقوه بتجاوزها ، ولعلّه فى هذا المقام أوّل من أمر بإدخال تكاليف كسوة الكعبة فيما ينفق من بيت المال على الفقراء والمساكين ،

---

(١) تعنى : تتعب .

(٢) يقصد الحسن البصرى .

(٣) ابن الجوزى : سيرة عمر بن عبد العزيز ، تصحيح محب الدين الخطيب — مطبعة المؤيد — مصر سنة ١٣٣١ هـ — ص ١٠١ .

مسجّلا فى إحدى رسائله إلى هؤلاء الذين كتبوا إليه أن يأمر للبيت بكسوة كما كان يفعل من كان قبله : « إنّى رأيتُ أن أجعل ذلك فى أكباد جائعة ، فإنه أولى بذلك من البيت . » (١)

وربما تساءلنا بعد هذا ... هل اقتصر توظيف أدب الرسالة فى الحقبة الأموية على تلك الغايات وحسب ؟ وألَمْ يخرج هذا الأدب عن نطاق المدوّنات التاريخية ، والوثائق المالية والفقهية ؟ فى الإجابة عن هذا وأمثاله ما يحدّد موضوع الفصل التالى .

(١) المصدر السابق – ص ٧٦ .

الفصل الثانى

رسائل الحوار السياسى

أراد الشاعر ألكسندر بوشكين أن يقوّم رسائل صنوه الكاتب الروائى ألكسندر تورجينيف ، فلم يجد أبلغ فى وصفها من القول بأنها « موسوعة للحياة السياسية والثقافية فى أوروبا إبّان النصف الأوّل من القرن التاسع عشر » (١) . ولم يجامل الشاعر صديقه الروائى كثيرا ، فالحق أن رسائل النماذج العليا من الساسة والمفكرين والأدباء تعتبر من أصدق الشهادات على عصرها، ومن ثم كانت العناية البالغة لدى الأوربيين بنشر رسائل العظماء واعترافاتهم ، وإن كان هذا يحدث – فى الغالب – بعد وفاتهم .

ومن بين أنماط الرسائل فى العصر الأموى تحتلّ الرسالة السياسية مكانة ملحوظة ؛ إذ كان الصراع السياسى والجدل الحزبى من أبرز الألوان والخطوط التى ميزت خريطة العصر ؛ ومن ثم كان الكتاب السياسى صيغة مناسبة لعرض مبادىء هذا الحزب أو ذاك ، ولاستمالة هذه الجماعة أو تلك ، وللإقناع بالرأى والاحتجاج له ، أو لتفنيده والاستدلال على فساده ، وللحوار بين زعماء الفرق والطوائف ، ومُناقلة

---

(١) Torgenev, A. J., Letters and Daybooks, Moscow, 1964, P. 6.

وجهات النظر حول الموضوع السياسى ، فيما يشبه ما تنهض به وسائل الإعلام فى العصر الحديث .

ولا ريب أن من أهم الموضوعات التى انعقد حولها الجدل فى الرسائل السياسية موضوع الخلافة ، وعلى أى نحو تكون هذه الخلافة ؟ ولأىٍّ من التكتُّلات الحزبية تصير ؟ ولمن مِن زعماء هذه التكتلات ينبغى أن يكون صولجانها ؟ وهى أسئلة كانت الإجابة عنها تقتضى من الأطراف المتنازعة كل ما عسى أن تتحلى به من لباقة التأتى وقوة الحجة وبلاغة العبارة ، ولم تكن الغلبة فى هذا النزاع – بالضرورة – لأحق الطرفين وأدناهما إلى الصواب ، بقدر ما كانت – على المستوى الكلامى – لألحنهما بالحجة ، وأكثرهما مهارة فى اصطناع البرهان ، مثلما كانت – على المستوى القتالى – لأوفرهما قوة ، وأعظمهما قدرة على تأليف الناس من حوله ، وأكثرهما دهاء فى التعامل مع معطيات الواقع المتغيِّر .

إن الحسن بن على – مثلا – كان على الحق كله حين احتج على معاوية – فى شأن الخلافة – بأن العرب عرفت لقريش مكانها من الرسول (ص) فلم تنازعها فى الأمر من بعده ، وكان منطق القياس يقتضى أن تعرف قريش لبنى هاشم ما عرفته العرب لها ، ولكنَّ قريشا أنكرت على بنى هاشم مالم تنكره العرب عليها . ويا له من جحود ، وبخاصة حين يأتى من ذوى الفضل : « ما أنصفَتْنا قريش ، وقد كانوا ذوى فضيلة فى الدين ، وسابقة فى الإسلام ، ولا غرْو إلَّا منازعتك إيانا الأمر بغير حق فى الدنيا معروف ، ولا أثر فى الإسلام محمود » ، ولكن معاوية فى رسالة ضافية . يردّ بها على الحسن . لا يتوقف كثيرا

عند هذا الحق ، لعلمه بضعف موقفه فيه . بل يرد عليه فى «الشكل» كما يقول أصحاب المنطق ، ويحتج عليه بأنه حين ذكر قريشا والسابقين فى الإسلام قد اتّهم من لا يتهمه المسلمون كأبى بكر وعمر ، بل لقد اتهم المسلمين كافّة لأنهم هم الذين ارتضوا أبا بكر ، ثم هم الذين اجتمعوا على عمر من بعده . يقول معاوية فى رسالته تلك :

أمّا بعد ، فقد فهمتُ ما ذكرتَ به رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، وهو أحقُّ الأوّلين والآخرين بالفضل كله . وذكرت تنازُع المسلمين الأمر بعده ، فصرّحْت بتهمة أبى بكر الصدّيق وعمر وأبى عبيدة الأمين وصلحاء المهاجرين . فكرهتُ لك ذلك . إنَّ الأُمة لما تنازعت الأمر بينها رأت قريشا أخلقها به . فرأت قريش والأنصار وذوو الفضل والدين من المسلمين أن يولُّوا من قريش أعلمها بالله ، وأخشاها له ، وأقواها على الأمر ، فاختاروا أبا بكر ولم يألوا (١) . ولو علموا مكان رجل غير أبى بكر يقوم مقامه ويَذُبّ (٢) عن حُرَم الإسلام ذبّه ، ما عدلوا بالأمر إلى أبى بكر . والحالُ اليوم بينى وبينك على ما كانوا عليه ، فلو علمتُ أنك أضبط لأمر الرعية ، وأحوط على هذه الأمة ، وأحسن سياسة ، وأكْيدُ للعدو ، وأقوى على جمع الفىء ، لسلّمتُ لك الأمر بعد أبيك ، فإن أباك سعى على عثمان حتى قُتِل مظلوما . فطالب اللهُ بدمه ، ومن يطلبْه الله فلن يفوته ، ثم ابتزّ (٣) الأُمة أمرها ، وفرّق جماعتها ، فخالفه نظراؤه من أهل السابقة والجهاد والقَدَم فى

(١) لم يألوا : لم يقصروا فى الاختيار .
(٢) ذب عنه : منعه ودفع عنه .
(٣) ابتز الأمة أمرها : غلبها على أمرها .

الإسلام ، وادّعى أنهم نكثوا بيعته فقاتلهم ، فسُفكت الدماء ، واستُحِلَّت الحرم ، ثم أقبل إلينا لايدّعي علينا بيْعة ، ولكنه يريد أن يملكنا اغترارا (١) ، فحاربْناه وحارَبَنَا ، ثم صارت الحرب إلى أن اختاروا رجلا واخترنا رجلا ليحكما بما تصلح عليه الأُمة ، وتعود به الجماعة والأُلفة ، وأخذنا بذلك عليهما ميثاقا ، وعليه مثله ، على الرضا بما حكما ، فأمضى الحكَمان (٢) عليه الحكم بما علمت ، وخلعاه ، فوالله ما رضي بالحكْم ، ولا صبر لأمر الله ، فكيف تدعونى إلى أمر إنّما تطلبه بحق أبيك وقد خرج منه ، فانظر لنفسك ولدينك .. » (٣)

إنَّ لباقة الكاتب السياسى تتجلى واضحة فى تسليم معاوية ببدهيّة لا يمارى فيها مسلم ، وهى أن الرسول (ص) « أحقُّ الأولين والآخرين بالفضل كله » ، ولكنه لا يرتب على هذه المقدمة ما رتّبه عليها الحسن من نتائج ، ليس أقلّها أحقيته بالخلافة وأولويّته فيها . ثم إن معاوية يلتقط الواقعة من كلام الحسن نفسه ، فيأخذه بها أوّلا ، ثم يعيد تفسيرها لصالح قضيته ثانيا ؛ فتجاوز الاختيار نطاق علىّ وأولاده يصمه الحسن بالجحود مرة ، وبعدم الإنصاف مرة أخرى ، ولكن معاوية يرى فى هذا الوصف بالذات نوعا من الاتهام « لصلحاء المهاجرين » ، فكأنّه يقلب كلام الحسن عليه ، ثم يزيد فيجعل من هذا دليلا على الحسن وليس دليلا له ؛ « إذ لو علموا مكان رجل غير أبى بكر يقوم

---

(١) اغتر فلانا : طلب غفلته ، واغتره الأمر : أتاه على غفلة .

(٢) يقصد عمرو بن العاص وأبا موسى الأشعرى .

(٣) عز الدين حامد الشهير بابن أبى الحديد : شرح نهج البلاغة — المجلد الرابع — الطبعة الثانية — بيروت سنة ١٩٥٦ — ص ١٣ .

مقامه ويذبَّ عن حُرَم الإسلام ذبّه ما عدلوا بالأمر إليه » . ومع قيمة هذا الاستنتاج فإن ذكاء معاوية لا يقنع به حتى يتدرج منه إلى قياس أكثر أهمية ، ونكاد نقول : أكثر خطورة ؛ فإذا كان المسلمون قد اتكأوا فى اختيارهم الأوّل على مقياس « الأصلح » : وليس مقياس « الأقرب » — وهذا الطرح من وجهة نظر معاوية — . فما الذى يمنع من تحكيم نفس المقياس مرة ثانية ؟ نعنى : ما الذى يحول دون أن يكون معاوية خليفة فى حضور الحسن ؟ ويُعيد التاريخ نفسه كَرة أُخرى : « والحال اليوم بينى وبينك على ما كانوا عليه ... » . خلاصة تبدو منطقية ؛ لأنها تستشهد بالماضى على الحاضر . فتجعل لواقع الحال جذورا أصولية يصعب ردّها ، بل تضيف إلى هذه الجذور الأصولية تذكيرا بصالح الأمة الذى يزعم «معاوية» أنه أكثر قدرة على تحقيقه : لو علمتُ أنك أضبط لأمر الرعية . وأحوط على هذه الأمة ، وأحسن سياسة ، وأكيد للعدو ، وأقوى على جمع الفيء ، لسلّمت لك الأمر بعد أبيك .. »

ودعك من الحجج الأُخرى التى اتّكأ عليها معاوية . كاحتجاجه بأنّ « عليّا » لم تكن له فى أعناق بنى أُمية بيعة . وأنّه رضى أوّل التحكيم ثم أنكر آخره ، فتلك — وأمثالها — أقوال واردة . ومعادة ، وإن لم تكن مقبولة على إطلاقها ، ولكن لباقة الكاتب السياسى تبدو جليّة فيما اجتزأنا به : وهى لباقة تبدو فى استثمار بدوات الخصم ، وتقييده بكلامه ، ثم هى لباقة لا تنجو من مراوغة . والتفاف ، ومواربة ، فى الفكرة والصورة والعبارة ، وجميعها سمات تقف على الطرف النقيض من وضوح خصومه ، واستقامة طرائقهم فى الادراك

والصياغة . تأمّل مواجهة الحسن مباشرة لمآخذه على معاوية ؛ وإفصاحه علانية عن مشاعره إزاءه ، حتى بعد أن بايعه وسلّم له بالأمر ، فقد دعاه معاوية إلى المشاركة فى حرب الخوارج ، وربما دعاه إلى ذلك بدافع المجاملة ، فكتب إليه الحسن : والله لقد كففتُ عنك لحقن دماء المسلمين ، وما أحسب ذلك يسعنى ، أفأُقاتل عنك قوما أنت والله أولى بالقتال منهم ؟ ... » (١)

وقد تحلو المقارنة بين هذه الجهارة القاطعة كحدّ السيف ، وموقف معاوية من الحسن نفسه ، حين نشب نزاع بين الحسن وزياد بن أبى سفيان ، لأن الحسن تشفّع لديه فى سعيد بن أبى سرح ، وكان زياد حين قدم الكوفة قد طلبه وأخافه وأخذ ماله ونقض داره ، ولكن زيادا لم يقبل شفاعة الحسن ، وأرسل إليه يعنّفه ؛ لأن الحسن حين خاطبه — تعنى زيادا — بدأ بنفسه ، ولأنه لم يترفق فى شفاعته ، بل صاغها فى قالب الأمر الصريح ، وتتمّة القصة أن الحسن حين تلقى هذا المكتوب العنيف من زياد طواه وبعث به إلى الخليفة ، كأنما يشكو إليه جور أخيه ، فلما قرأ معاوية كتاب زياد إلى الحسن ضاقت به الشام . واستبشع ما اقترفه أولهما فى حق ثانيهما ، وكتب إلى زياد يؤنبه ويعيّره بأمه ، وينسب فساده وخطله إليها . ثم يفنّد ما غضب منه : « فأمّا أنّ الحسن بدأ بنفسه ارتفاعا عليك . فإن ذلك لا يَضَعُك لو عَقَلْت ، وأمّا تسلّطه عليك بالأمر فحَقٌّ لمثل الحسن أن يتسلّط ، وأمّا تركُك تشفيعه فيما شفع فيه إليك ، فحظٌّ دفعته

---

(١) أبو العباس محمد بن يزيد المبرد — الكامل — ج ٣ — مصدر سابق — ص ٢٤٠ .

عن نفسك إلى من هو أوْلى به منك . فإذا ورد عليك كتابى فخلّ ما فى يديك لسعيد بن أبى سرح ، وابْن له داره ، وارْدُدْ عليه ماله ، ولا تَعَرّضْ له ، فقد كتبتُ إلى الحسن أن يخيره : إن شاء أقام عنده : وإن شاء رجع إلى بلده . ولا سلطان لك عليه لا بيد ولا لسان . وأما كتابك إلى الحسن باسْمه واسم أمه . ولا تنسبه إلى أبيه ، فإن الحسن — ويْحك — من لا يُرمى به الرَّجَوَان(١) ؛ وإلى أىّ أُمّ وَكَلْتَه لا أُم لك ؟ أما علمتَ أنها فاطمة بنتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فَذَاكَ أفْخَر له لو كنت تعلمه وتعقله . (٢) »

ولسنا فى مقام التقويم الخلقى للرجلين : الحسن ومعاوية . فليست صراحة الحسن وجهارته فى التعبير عن نفسه تهمة حتى ننكرها ، وليست مراوغة معاوية ومقدرته على ترويض انفعالاته فضيلة بالضرورة ، بل إنها فى جوهرها ضرب من الدهاء الإدارى والبصيرة السياسية ، وهما أمران كانا يدفعانه إلى اتّقاء بنى هاشم : رغم كراهيته لهم . ويلجئانه إلى التقرب منهم . على الرغم من عزوف هؤلاء عنه وعن عشيرته . وقد مضى فى هذا الطريق إلى حدّ أنّه رغب فى تزويج ولده يزيد من أُم كلثوم بنت عبد الله بن جعفر ، ولم يتكلف فى إخفاء غايته من هذا الزواج السياسى : بل صرّح بأنه يبغى أن

---

(١) الرجوان : جانبا البئر ، لا يرمى به الرجوان : لا يستخف به ولا يستهان بقدره .

(٢) ورد النص بصيغة مقاربة فى :

ابن أبى الحديد : شرح نهج البلاغة — المجلد الرابع — ص ١٠ .

ابن عبد ربه : العقد الفريد — حـ ٣ — طبعة محمود شاكر الكتبى — ص ٢٣٢ .

كما ورد بالصيغة المذكورة فى : جمهرة رسائل العرب — حـ ٢ — ص ٣٧ — ٣٨ .

« يَسُلّ السخيمة ويصل الرحم » ، ولكن خال العروس ، الحسين بن علي ، يفطن إلى دخيلة معاوية ، فيأبى أم كلثوم على يزيد ، ويرفض هذا الزواج الذى يراد به مداجنة بنى هاشم وتأليف قلوبهم . (١)

ويبدو أن خاصة معاوية وبطانته من أهله والمقربين إليه كانوا يعلمون تماما طبيعة هذه « البصيرة السياسية » التى تميز شيخهم ، وكانوا يعرفون حق المعرفة أن ازدواجية المحاور التى تنهض عليها هذه البصيرة ربما دفعت بصاحبهم إلى قول أو فعل لا يوافقان مكنون نفسه . أو يخالف هدفهما البعيد ما قد يبدو لهما من غاية وحلية ؛ ومن أجل ذلك نرى « زيادا » فى الموقف الآنف الذكر — حكايته مع الحسن — لا يحمل على محمل الجد غضبة خليفته ، فلا يقابلها بالثورة أو العزوف ، أو حتى الاستنكار ، بل يتلقاها باعتبارها درسا آخر من دروس البصيرة السياسية ، وقد اعترف « زياد » فيما بعد بقيمة هذا الدرس وأهميته فى تربية السلوك السياسى ، حين قال فيما يشبه الاعتراف : « ما غلبنى أمير المؤمنين معاوية إلا فى واحدة . طلبتُ رجلا فلجأ إليه وتحرّم به . فكتبتُ إليه : « إن هذا فساد لعملى ، إذا طلبتُ أحدا لجأ إليك فتحرم بك » . فكتب إلىّ : « إنه لا ينبغى لنا أن نسوس الناس بسياسة واحدة ، فيكون مقامنا مقام رجل واحد ، ولكن تكون أنت للشدة والغلظة ، وأكون أنا للرأفة والرحمة . فيستريح الناس فيما بيننا . » (٢)

---

(١) انظر القصة بأكملها فى :
المبرد — الكامل — ج ٣ — ص ٢٠٨ — ٢٠٩ .

(٢) المصدر السابق — ج ٣ — ص ٢٣٢

إنها - إذن - الأخلاقيات المحسوبة ، والحلم الهادف ، والرفق الذى يعدل الغلظة ، واللين الذى يوازن الشدة ، والأدوار التى تتوزع بين الشركاء ، وليس لها ، فى الحقيقة ، إلا غاية واحدة .

رســائل البيعة :

ولم تقتصر الرسالة السياسية على ما يتعلق بمبدأ الخلافة والجدل بشأنه ، بل إن من أنماط هذه الرسالة ما يتعلق بمبدأ البيعة ، طلبا وإجابة ، أخذا وإعطاء ، باعتبار هذا المبدأ ترجمة عن علاقة الاختيار التى تصل ما بين الراعى والرعية ، بعيدا عن القسر والتسلط . (١) وهذا النمط كثير الذيوع فى النثر الأموى ، وهو ذيوع متوقع فى فترة كفترة العصر الأموى ، فيها من التقلبات السياسية ، والاضطراب الحزبى ، ما يجعل كل خليفة حريصا على الاستقرار بطلب مبايعة الناس له أو لمن يريد هو أن يخلفه من بعده ، وقد طلبها معاوية ابن أبى سفيان وعبد الملك بن مروان - كما طلبها غيرهما - لنفسيهما أولا ، ثم طلباها فى النهاية لولديهما ، وفى الحالتين كان الهدف تأمين الطريق ، للحاكم أو لولده ، نحو استتباب الأمر استتبابا كاملا .

وقد تتوجه رسائل طلب البيعة من الخليفة إلى واليه لكى يقوم بأخذها له من أهل الإقليم الذى يتولاه ، كما صنع يزيد بن معاوية حين أرسل إلى عامله على المدينة ، الوليد بن عتبة بن أبى سفيان ، يطلب منه بيعة أولئك الذين رفضوا الإجابة إلى بيعته . وقد تتوجه

---

(١) راجع فى فحوى هذه العلاقة :
على حسب الله : أصول التشريع الإسلامى - الطبعة السادسة - القاهرة - سنة ١٩٨٢ - ص ٤٢٥ .

إلى المطلوب بالبيعة بذاته : كما صنع معاوية مع الحسن بن على ، وفى الموقفين نلحظ حرص طالب البيعة على أن يبايعه — فى المقام الأوّل — منافسوه والمتربصون بالخلافة ، واقعا أو توقُّعا ، ثم — فى المقام الثانى — أقرانه فى الفضل والصفوة من أهل الحل والعقد بين المسلمين بصفة عامة ، وقد كان يزيد فى مطالبته المذكورة ضارى الإلحاح بخاصة على بيعة الحسين وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير ، لعلمه بمكانتهم فى قلوب المسلمين ، وطموحهم إلى الخلافة ، ومن قبله كان معاوية يتذرع بنفس الإلحاح فى الحصول لولده على بيعة هؤلاء : بالإضافة إلى عبد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر ، وقد أرسل إليهم جميعا رسائل فى هذا المعنى ، وأمر واليه على المدينة سعيد بن العاص أن يسلّمها إليهم ، وكتب إلى سعيد نفسه ، قائلا له بعد الديباجة :

« أما بعد ، فقد أتانى كتابك ، وفهمتُ ما ذكرتَ فيه من إبطاء الناس عن البيعة ، ولا سيّما بنى هاشم ، ومَا ذكَرَ ابنُ الزبير ، وقد كتبتُ إلى رؤسائهم كتبا ، فسلِّمْها إليهم ، وتَنَجَّزْ(١) جواباتها ، وابعث بها إلىَّ حتى أرى فى ذلك رأيى ، ولْتشتدَّ عزيمتك ، ولْتصلبْ شكيمتك(٢) ، وتحسن نيتك ، وعليك بالرفق ، وإياك والخُرْق(٣) ، فإن الرفق رَشَد ، والخُرق نَكَد ، وانظر «حسينا» خاصة ، فلا يناله منك مكروه ، فإن له قرابة وحقا عظيما ، لا ينكره مسلم ولا مسلمة ،

---

(١) تنجز الشىء : طلب إنجازه .
(٢) الشكيمة : الأنفة .
(٣) الخرق : الحمق .

وهو ليث عرين ، ولستُ آمنك إن شادَدْتَهُ(١) أن لاتقْوى عليه . فأمّا من يرد مع السباع إذا وردتْ ، ويَكْتِسُ(٢) إذا كَنَسَتْ ، فذلك عبد الله بن الزبير ، فاحذرْهُ أشدّ الحذر ، ولا قوة إلّا بالله ، وأنا قادم عليك إن شاء الله ، والسلام . » (٣)

ونلحظ فى هذه الوثيقة ، وغيرها من الرسائل السياسية ، نزوعا نسبيا إلى الأصباغ الجمالية ، فليس فيها ما فى الرسائل التاريخية والإدارية والفقهية من مباشرة وجفاف ، ومعجمها التعبيرى لا يخلو من دقة فى الانتقاء ، كما أن بها ضربا من الإيقاع النثرى يتولّد من بعض فواصل الجمل : عزيمتك ، شكيمتك ، الرفق ، الخرق ، ثم من توازن بعض بنيات التركيب : « الرفق رشَد ـ الخرق نكَد» ، بالإضافة إلى بعض الصور الأدبية الموحية : « يرد مع السباع إذا وردت ، ويكنس إذا كنست » : وهى موحية لأنها تتجاوز الدلالة الأولى على أن ابن الزبير تابع وليس متبوعا ، إلى دلالة ثانية إضافية يتحول معها الصراع على الصولجان إلى ضراوة يتصدّر موكبها السباع ، ويتذيّله من هم دون السباع جرأة وإقداما .

وقد يقترن الميثاق بالبيعة ، فى هذا النوع من الرسائل ، فيطلب من يبذل البيعة أمانا وموثقا من ولىّ الأمر ، أن لا يظلمه ولا يجور

---

(١) شاددته : غالبته ، وفى الأصل : شاورته ، ولا يليق بالمقام .

(٢) يكنس : يستتر ويختبىء .

(٣) راجع النص فى :

أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى :

الإمامة والسياسة — نشرة المكتبة التجارية — ج ١ — ص ١٦٢ — ١٦٣ .

عليه ولا يخفر له ذمة أو عهدا ، وغالبا ما يحدث ذلك إذا تمت البيعة بعد ملاحاة وتنابذ ، فلا تكون مجرد تعبير عن علاقة الاختيار بين الراعي والرعية ، بل تتجاوزه إلى حيث تصبح نوعا من تقنين العلاقة بين خصوم اتفقوا على أن يتهادنوا ويتوادعوا ، دون أن يطمئن أحدهم - المبايِع - إلى الآخر - المبايَع - إلّا بالموثق المكتوب .

ومن نماذج ذلك ، تلك الرسائل التى تُبودلت بين محمد بن الحنفية (محمد بن علي بن أبي طالب) وعبد الملك بن مروان ، إذ كتب الأول إلى الأخير بعد مقتل ابن الزبير ، يبايعه ويطلب منه العهد والأمان : « رأيتُ الناس قد اجتمعوا عليك ، ونحن عصابة من أمتنا لا نفارق الجماعة ، وقد بعثتُ إليك منّا رسولا ليأخذ لنا منك ميثاقا ، ونحن أحق بذلك منك ، فإن أبيْتَ فأرض الله واسعة ... » (١)

فكتب إليه عبد الملك ، مجيبا ، وباذلا له ما طَلب من أمان :

« قد بلغني كتابك بما سألته من الميثاق لك وللعصابة التى معك ، فلك عهد الله وميثاقه ألّا تُهاج فى سلطاننا : غائبا ولا شاهدا ، ولا أحدٌ من أصحابك ، ما وفوا ببيعهم ، فإن أحببتَ المُقَام بالحجاز فأَقم ، فلن ندع صلتك وبرّك ، وإن أحببت المقام عندنا فاشخص إلينا فلن ندع مواساتك ، ولَعمْرِى لئن ألجأناك إلى الذهاب فى الأرض خائفا لقد ظلمناك وقطعنا رحمك ، فاخرج إلى الحجّاج فبايعْ ، فإنك أنت المحمود عندنا دينا ورأيا . . . . . . » (٢)

---

(١) العقد الفريد - حـ ٣ - الطبعة المشار إليها آنفاً - ص ١٤٩ .

(٢) المصدر السابق - نفس الجزء والصفحة .

رســائل العهـد :

ومن الرسائل التى عرفها أدب الكتابة فى الحقبة الأموية ما يتوجّه به الخليفة إلى من يريد أن يعهد إليه بالأمر من بعده ، وهو ضرب من الرسائل جديد على النثر العربى ، لسبب بسيط ، وهو جدّة الظروف والملابسات التى أفضت إليه ، فلم تكن من قبل فى الإسلام وراثة للأمر كتلك التى عرفها العرش الأموى ، حتّى تكون ثمة رسائل من هذا النوع ، وقد أوردت بعض أمّهات التراث نماذج مطوّلة من هذه الرسائل ، وهى تتضمن — فوق العهد وما يتعلق به — بعض ما تثيره هذه المواقف من إحساس باقتراب الأجل وشعور بالشجن والخشية والادّكار ؛ فالطبرى يورد كتاب الوليد بن يزيد (١٢٥ — ١٢٦ هـ) فى العهد لابنيه الحكم وعثمان فى صفحات طوال ، وابن قتيبة يروى عهد سليمان بن عبد الملك (٩٦ — ٩٩ هـ) لعمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١ هـ) فى أكثر من أربعين سطرا : الشطر الأعظم منها يدور حول معانى العظة والاعتبار بمصائر الأيام والاستغفار عن سابق الذنوب ، وجزؤها الأخير هو الذى يتحدث عن العهد صراحة :

« وإنَّ ولىّ عهدى فيكم ، وصاحب أمرى بعد موتى ، فى كل من استخلفنى اللهُ عليه ، الرجلُ الصالح عمر بن عبد العزيز ، ابنُ عمّى ، لما بلوْتُ من باطن أمره وظاهره ، ورجوت الله بذلك ، وأردتُ رضاه ورحمته ، إن شاء الله . . . » (١)

على أن الرسالة السياسية فى عمومها لم تكن تخلو أحيانا من

---

(١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة — جـ ٢ — ص ١٠٤ — ١٠٥ .

دلالات قبلية تلتبس بالدلالات السياسية وتقوم منها مقام السبب مرة ، ومقام النتيجة مرة أخرى ، فمن المعلوم أن بنى أمية حين قبضوا على زمام الخلافة ساعدوا بسياستهم وبأسلوب حكمهم على إحياء بعض ما كان قد أطفأه الإسلام من نيران العصبية ، فتعصبوا لذويهم من بيت أمية بن عبد شمس ضد أبناء عمومتهم من بنى هاشم ابن عبد مناف ، ثم تعصبوا لقريش من بين سائر العرب ، ثم اعتدّوا بالعنصر العربى بخاصة فى مواجهة الأجناس الأخرى التى استظلت بلواء الإسلام . وأفضت هذه العصبيات المركّبة إلى عصبيات مضادّة ، تمثلت فى ثورات الموالى على سلطة الأمويين كلما سنحت لهم الفرصة ، كما تمثلت فى استقطاب القبائل على نحو لم يدع للأمن والسكينة مجالا : « فافتخرت نزار — كما يقول المسعودى — على اليمن ، وافتخرت اليمن على نزار ، وأدلى كل فريق بما له من المناقب ، وتحزبت الناس ، وثارت العصبية فى البدو والحضر . » (١)

ولم تنج الرسالة السياسية من رواسب هذه العصبية ، فعبّرت عنها صراحة أو إيماء ، وتناولتها فى مقام الإدانة والاستهجان ، كما تناولها عبد الله بن عباس حين كتب من البصرة إلى معاوية ، فأشار إلى اصطناعه — نعنى معاوية — اليمانية ، واستمالته إياهم ، واستعانته بهم ، ومحاولته أن يسلك مع قريش مسلكه مع اليمانية : « تلتمس من غفلات قريش مثل ما ظفرتَ به من يمانيتك » ، وتناولتها — أيضا — فى مقام التأييد والاستحسان ، كما تناولها معاوية حين بلغه أن الحسين

---

(١) المسعودى : مروج الذهب — طبعة المطبعة البهية — جـ ٢ — ص ١٩٧ .

ابن على أعتق جارية له وتزوجها ، فكتب إليه يُعْلِى من شأن الانتماء القرشى ، ويذكِّره بمقتضيات هذا الانتماء ، ويأخذ عليه عدم الوفاء بهذه المقتضيات :

من أمير المؤمنين معاوية إلى الحسين بن على . أمّا بعد ، فإنه قد بلغنى أنك تزوجت جاريتك ، وتركت أكْفاءك من قريش ، ممن تَستحسنه للولد ، وتمْجُد به فى الصِّهْر ، فلا لنفسك نظرت ، ولا لولدك انتقيت . » (١)

ومن الواضح أن معاوية لم يكن ليكترث كثيراً بنقاء العنصر العربى وعدم تهجينه ، بقدر ما كان يعنيه استغلال هذا الحدث استغلالاً سياسياً ، فتذرع بالعصبية العربية — والقرشية على وجه التحديد — ضد الموالى ؛ ليسىءُ إلى الحسين ، ويصرف الناس عنه ، ويشوه صورته فى أعين الآخرين ، وبخاصة ذويه والمقْربين إليه من أهله ورحمه .

والشرّ مرتعه وخيم ، فقد ظلت هذه الدلالة القَبَلية تتوارثها الأعْمال النثرية ، كما تتوارثها الأعمال الشعرية ، حتّى رأيناها تمارس دورا خطيراً فى إذكاء الضغائن وإيغار الصدور ، وقد كان هذا محتملا ، لوْلا أنه كان يحدث أحياناً فى أزمنة حَرِجة ، وبين نَفَر من الأُمراء والقادة وعلْية القوم ، ممن تؤدّى ضغائنهم إلى كوارث يتعدّاهم نطاقها إلى عامة المسلمين .

---

(١) انظر نص الرسالة ورد الحسين عليها فى :
أبو إسحاق الحصرى القيروانى : زهر الآداب — ضبط وتعليق الدكتور زكى مبارك — نشر المكتبة التجارية — القاهرة سنة ١٩٢٥ — ص ٥٧ .

ومن آيات ذلك ما حدث حين خرج المهلّب بن أبي صُفْرةَ فى آثار الخوارج ، ونشب بينه وبينهم القتال ، فانكشفوا ، وقد كثر فيهم القتل والجراح ، ويبدو أن المهلّب قد اطمأنّ حينذاك إلى ما أحرزه من نصر ، فلم يواصل تعقُّب المنهزمين ، وربما شُغل إلى ذلك بهموم الإدارة وشئون الجباية ، فكتب إليه الحجاج :

« أما بعد ، فإنه بلغنى أنك أقبلت على جباية الخراج ، وتركْت قتال العدو ، وإنىّ ولَّيتُك وأنا أرى مكان عبد الله بن حكيم المُجاشِعى ، وعبّادِ بن حُصَين الحَبَطِى ، واخترتُك وأنت من أهل عُمَان ، ثم رجلٌ من الأَزْد ، فالْقَهُم يوم كذا فى مكان كذا ، وإلاَّ أشرعتُ إليك صدر الرّمح » . (١)

وما نودّ أن تتنبّه إليه فى هذه الوثيقة هو تعْيير الحجاج ـ الأمير ـ للمهلّب ـ قائده الذى ظفر أوْ كاد ـ بموطنه وقبيلته : « عمان ، الأَزد »، وهى عبارة كانت كفيلة بإثارة المهلّب إلى أبعد حد ، وقد أوصاه بنوه بألاَّ يَغْلُظ فى الجواب على أميره ، ولكنه بالرغم من كل التحذيرات لم يملك إلاَّ أن يردّ على الجرح القَبلى بمثله ، كائنا ما تكون العاقبة ، حتى لو كان الثمن خلعه عن القيادة وترْك قتال الخوارج بعدِ أن أوْشك على اجتثاث دابرهم :

واخترتنى وأنا رجل من الأَزد ، ولَعمْرى إنّ شراً من الأَزد لقبيلة تَنَازَعُها ثلاث قبائل ، لم تستقرّ فى واحدة منهن (٢) » ، وهو يعنى

(١) النص بأكله فى :
المبرد : الكامل ـ ح ٣ ـ ص ٢٧٠ .
(٢) المصدر السابق ـ الجزء والصفحة ذاتهما .

بتلك القبيلة القلقة قبيلة الحجاج « ثقيف » ، فهى قبيلة حائرة النسب بين هوازن وإياد وثمود ، وكل من هذه الأُصول يدّعيها دون أن تطمئن فى النهاية إلى أصل . وما كان لمثل المهلَّب أن يدع مغمزاً كهذا دون أن يستغلّه فى ردّ الإساءة التى استشعرها من الحجاج .

تُرى هل كان الأَمر ليمرّ بسلام على الرعية من المسلمين لو أنَّ الحجّاج « أشرع رمحه » ، كما قال فى تهديده ؟ وهل كان المهلَّب ليتلقّى هذا الرمح دون أن يقلب إليه « ظَهر المِجنّ » ، كما قال فى الرد على تهديد صاحبه ؟ وهل كانت النتائج فى الحالين لتخلو من كارثة لا يقتصر نطاقها على أصحابها ؟ ! !

الفصل الثالث

رسائل الجدل المذهبي

لم تكن الكتابة السياسية وحيدة فى استئثارها بفيض المحاورات التى شهدتها الحقبة الأموية ، بل شاركتها الكتابة المذهبية والطائفية ذيوعها وانتشارها . إلى حدّ أضفى على تلك الحقبة صبغة الجدل المبدئى ، مثلما خلع عليها رداء الحوار السياسى ؛ وذلك أمر منطقى ، ما دامت كل طائفة . وما دام كل مذهب . حريصاً على إثبات شرعية مبدئه ، وعلى الاحتجاج له ؛ بقدر حرصه على إبطال مبدأ خصمه ؛ وردّ ما اعتمد عليه من دليل . وفى ظل وسائل اتصال لم تتطوّر بعد ، ومع وجود الأبعاد الشاسعة التى قد تحول أحياناً بين الخصوم المذهبيين والمواجهة المباشرة . كان لابد أن تنهض رسائل الجدل المذهبي والطائفى بدورها فى التنقّل بين أطراف العلاقة ، وحمل وجهات نظرهم . إنشاء وردًّا . إيجاباً وسلباً .

ولسنا نمارى فى أن الاحتكاك الناجم عن اتصال العرب المسلمين بغيرهم من الشعوب التى انضوت تحت لواء الإسلام ديناً أو إدارة . قد أفضى إلى تلقيح الفكر العربى بـ« أمشاج من الفكر الأجنبى . وخاصة من شُعَب الفكر اليونانى فى الفلسفة والمنطق (١) » . بل نمضى

(١) انظر — د . شوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى النثر العربى — ط ٥ — دار المعارف — مصر — ص ١٠ .

فنرتب على هذه المقدمة أن تلك الأمشاج الفلسفية والمنطقية قد أمدّت الصراع المذهبي والطائفي بطرق جديدة فى المقارعة والمحاجّة ، ورفدته بزاد لا بأس به من أساليب النقاش والبرهنة ، ناهيك عن بعض الفلذات الموضوعية التى تسربت إلى الفكر الإسلامى من جرّاء هذا الاحتكاك ، والتى تتجاوز هذه التأثيرات الشكلية فى طرائق الجدل وصور الاحتجاج (١) .

غير أنّ القيمة الأحق بالرعاية فى نظرنا ، والأجدر بأن تكون حاسمة فى الجدل المذهبي ، شكلا وموضوعاً ، هى قيمة التحول الذى كان على الفكر الإسلامى أن يعانيه بين السياسة والعقيدة ، بين ما يبدأ دنيوياً لينتهى إلى أمر روحانى صرف ، وما يبدأ دينياً ليتحول إلى وجه من وجوه السياسة العملية ، فلقد كان الوجهان — حتى هذه الحقبة — بمثابة وجهى العملة الواحدة . فما يكاد ينشب الخلاف حول أحدهما أو عنصر من عناصره ، حتى يعكس آثاره على الآخر ، بطريقة عضوية ومنتظمة ، وأبلغ الأدلة على هذا أن الصراع الذى بدأ حول النظام السياسى — الخلافة — لم يلد أحزاباً سياسية فقط ، كتلك التى مثّلها الأمويون أو الزبيريون ، بل تمخض كذلك عن فرق — كالخوارج — كان أساسها تحكيم النظرية الدينية فى التطبيق السياسى ، فلا تكون السلطة شرعية إلا حيث تحكم باسم الله ووفق مشيئته ، وهذا هو القطب

---

(١) من هذه الفلذات الموضوعية — على سبيل المثال — ما يزعمه فون كريمر من صلة بين بعض عقائد المرجئة وآراء الكنيسة الإغريقية . انظر :

الحضارة الإسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية — ص ٦٦ .

الأول من قطبي النظرية ، أما قطبها الآخر فهو الإمامة : التي إذا صلحت صلحت الأمور جميعاً ، وإذا استقام دينها استقامت دنياها ، فهي إمامة الدنيا والآخرة ، وبقدر ما في مسئولياتها من خطورة تكون الصعوبة في اختيار من يتصدى لها ، لأن صلاحيته — من وجهة نظر أصولية — لا تثبت إلا بالعمل والممارسة : والعمل والممارسة لا يكونان إلا لاحقين على الاختيار ، أي بعد أن تكون الأمور قد سارت إلى مدى يصعب تداركه (١) .

وعند هذه النقطة بالذات تتجلى صيغة التحول المتبادل بين الوجهين الديني والدنيوي في حركة الفرق الإسلامية ، فعلى حين جعل الخوارج من مبدأ « العمل » مقياساً مؤثراً في تحديد إيمانية المؤمن ، مهما كان مستوى ولايته الدنيوية ، ولم يسوّغوا بالإيمان ما خالف نصاً صريحاً من الكتاب والسنة ، وقالوا إن كل كبيرة كفر ، وإن صاحب الكبيرة مخلد في النار ، نرى المعتزلة يحكمون بأن مرتكب الكبيرة لا يعدو أن يكون فاسقاً ، وأنه في منزلة بين المنزلتين ، على حين يكل المرجئة الحكم فيه لله ، ويقولون بأنه لا تضر مع الإيمان معصية ، كما لا تنفع مع الكفر طاعة .

وآية هذا أن ما بدا للوهلة الأولى سياسياً لم يلبث أن أسفر عن عدد من الجزئيات ذات الصبغة الدينية ، ولا نقصد بهذه الجزئيات مجرد

(١) انظر في تفصيل هذا :
يوليوس فلهوزن : أحزاب المعارضة السياسية الدينية في صدر الإسلام : الخوارج والشيعة — ترجمة د . عبد الرحمن بدوي — مكتبة النهضة المصرية — القاهرة سنة ١٩٥٨ — ص ٣٠ وما بعدها .

البحث فى مسائل مثل ارتكاب الكبيرة ، والإصرار على الذنب ، والتخليد فى النار ، بل يضاف إلى ذلك قدر لا بأس به من المسائل ذات الإطار الفقهى الخالص ، أو الذى يكاد يكون خالصا ، كبحث الخوارج — أيضاً — فى استحلال أمانة المخالف ، وإكفار القاعدين عن الجهاد ، وقتل أطفال المخالفين ، وسهم ذوى القربى ولمن يكون . . إلخ (١) ؛ وهى قضايا تعكس فى مجملها أثر الوجه السياسى فى الوجه الدينى ، كما تشكل طائفة من الموضوعات التى ألحت عليها الخصومات المذهبية ، والتى كانت — من ثمة — مادة حافلة لرسائل الجدل والاحتجاج .

بل إن هذا الضرب من الرسائل قد زاد حتى أصبح وسيلة للحوار والمناقشة بين أبناء المذهب الواحد ، فمن المعلوم أن بعض الفرق قد توزعت شعبها ، وولد بعضها من معاطف بعض فيما يشبه التكاثر الذاتى ، ووصل ما بينها من صراع إلى حدّ ربما كان أشد عنفاً وأكثر ضراوة مما بينها وبين مخالفيها من أهل المذاهب وأتباع الفرق الأخرى. مع أن محاور هذا الصراع لم تكن موضوعية فى كل الأحوال ؛ وحتى لو كانت موضوعية فلم تكن من الخطورة بحيث تؤدى إلى اتساع الشقة بين أبناء الهوى الواحد على هذا النحو، ولعل مما له دلالة فى هذا المقام أن الخلاف بين النجدات (أتباع نجدة بن عامر) والأزارقة (أتباع نافع بن الأزرق) لم تتجاوز بواعثه عدداً محدودا من الهوامش والاختلافات الفرعية ، كتلك التى أشرنا إليها فى أحكام أطفال المخالفين ،

---

(١) لتفصيل النظر فى هذه المسائل التى كانت مادة الجدل المذهبى والطائفى ، يراجع :
الكامل للمبرد — الجزء الثانى .
العقد الفريد لابن عبد ربه — الجز الأول .

وأماناتهم ، وتأويل القعود ، ومن تنطبق عليهم أوصافه . ولأن الخلاف حول مثل هذه الجزئيات لا يستحق كل ما بنى عليه من نتائج ؛ فقد راح بعض المستشرقين يفسر انتقاض عدد من أجنحة الخوارج على زعيمهم نافع بن الأزرق بمجرد تشدده وتطرفه . وربما كان هذا الانتقاض — فى زعمهم — من قبيل الحسد له (١) .

ويعلق دارسو الأدب الخارجى على الصيغة القولية (الإبداع بأنواعه) التى تجلت من خلالها هذه الخلافات ، فيلحظون عفوية هذه الصيغة وبساطتها ، وإفصاحها عن المشاعر الدينية المتوهجة أكثر من تعبيرها عن عمق التفكير وفلسفيّة النظر ؛ « فلم نجد فى أدبهم — يقصدون أدب الشعب الخارجيّة على اختلافها — جدالا أو دفاعاً بالحجج والبراهين ، وإنما وجدنا نغماً دينياً قويا فى إيمانه » ، « فلا فلسفة ولا منطق ، وإنما احتجاج بآيات القرآن وأعمال السنّة » ، فإذا كان دوْر تفسير هذه التلقائية فى التعبير عن الشعور الدينى ، والبساطة فى معالجة مواطن المفارقة بينهم وبين معارضيهم ، كان التفسير المطروح : « لعل انشغالهم بجهادهم الحربى العنيف وباضطهاد الحاكمين لهم ، وخاصة فى النصف الأول من عصر بنى أمية ، هو الذى صرفهم عن بحث هذه المسائل والتفكير فيها باطمئنان وفى سعة من الوقت ، وإن يكن من المرجح أيضاً أن هذا يرجع فى كثير إلى طبيعتهم نفسها ؛ فهم يمثلون ذكاء العرب أصدق تمثيل — لمحات قوية خاطفة من قوة التفكير ،

---

(١) انظـر :

فلهوزن : أحزاب المعارضة السياسية الدينية فى صدر الإسلام — ص ٧٣ .

ولكنها لمحات لا موجات متصلة مرتبط بعضها بالبعض ، لقد كانوا هم الذين فتحوا فى عصر متقدم باباً كان لابد من فتحه للعقل الإسلامى ، وهو باب الفقه والفلسفة الدينية ، فبرهنوا بذلك على قوة من التفكير تسبق أوانها لجدّتها ، ولكنهم عجزوا أن يكونوا فرسان هذا الميدان بعد أن فتحوه » (١) .

ويبدو أن المسألة فى جوهرها لم تكن مسألة « طبيعة عربية » ذكاؤها لمحات تومض قبل أن يكون فكراً عميقاً متصلا ؛ لأن تلقائية الحوار المذهبي وبساطة الجدل الطائفى لم تختصّا بالذهن الخارجى فحسب ، بل كانتا سمتين لمجمل الإدراك المذهبي والطائفى فى هذه الحقبة ؛ إذ كانت الأصولية الدينية ، بمحوريها من الكتاب والسنة ، ما تزال هى المعين الأول فى جدليّات الفرق ، لم يداخلْها ذلك التشقيق الفلسفى ، ولم يخالطها ذلك التلوين المنطقى ، اللذان عرفا فى فترة متأخرة نسبياً ، وقد كان الجاحظ يلحظ عموم هذه الصبغة العربية الأعرابية ، حين رأى فيها إطاراً للعصر الأموى بأكمله ؛ حتى ليقول فى التفرقة بين الدولتين الأموية والعباسية : « دولة بنى العباس أعجمية خراسانية ؛ ودولة بنى مروان عربية أعرابية » (٢) .

ومقولة الجاحظ إن فرقت بين طابعى الدولتين ، فقد أوحت بأكثر مما تفيده دلالتها ، فتقدّم فن الجدل ، وتبلور طرق المناقشة

(١) د . سهير القلماوى : أدب الخوارج فى العصر الأموى – مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة سنة ١٩٤٥ – ص ٣٢ – ٤٣ .

(٢) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ – البيان والتبيين – تحقيق عبد السلام هارون – ج ٣ – ص ٣٦٦ .

المنطقية ؛ وازدهار الفلسفة الدينية . كل هذه الظواهر مدينة فى الأساس للحقبة العباسية ، وهى مدينة لها لا لأن هذه الحقبة قد وضعت الأعاجم فى مقابل العرب ، ولا لكون الأوّلين بطبيعتهم أصحاب فكر عميق لا يتمتع به الآخرون ، ولكن لأن هذه الحقبة العباسية كانت — من الناحية التاريخية — قد تهيّأت لمثل هذا التطور ، نعنى أنها فتحت الباب على مصراعيه لجملة من الروافد والمؤثرات اليونانية والفارسية والهندية ؛ تلك التى لم تتح من قبل للعصر الأموى : وبعبارة أخرى ، كانت العقلية الأعجمية خلال هذه الحقبة فى حالة تفاعل مع العقلية العربية أكثر مما كانت فى حالة تقابل ، حتى لوْ بدا وكأن الجاحظ يضع المسألة على هذا النحو التقابلى ، فليست القضية فى التحليل الأخير قضية عروبة وعجمة ، بقدر ما هى قضية ظروف تاريخية لم تكن قد نضجت بعد ، وروافد ثقافية لم تبلغ غايتها من النمو والتعقيد إلاَّ على مشارف العصر العباسى .

وطرح الأمر على هذا النحو لا يخلو — أيًّا كان الحال — من نسبية فى النظر : لأن تأخر التعقيد فى طرق المحاجة وأساليب المعالجة الفلسفية حتى مشارف العصر العباسى ، لا يعنى خلو الساحة الأموية من ألوان الجدل المذهبى خلوا تاماً ، وقد سبق أن ألمحنا إلى الضرورات السياسية والثقافية التى اقتضت أطرافاً من هذا الجدل ، ودعت — بخاصة — إلى صياغة هذا الجدل عبر فيض من الكتب والرسائل ، ونضيف إلى ذلك أن هذا الضرب من الرسائل الجدلية يمتد بجذوره إلى أواخر عهد الخلافة الراشدة ، وقد استعمله « على » فى مكاتباته مع الخوارج ، واستخدمه عبد الله بن وهب فى محاوراته مع خوارج البصرة ، وصاغ فيه عبد الله

ابن عباس رسالة لعلها من أقدم الوثائق المكتوبة التي تناقش مسألة الجبر والاختيار فى إطار جدلى غايته الإقناع ، عنينا بذلك رسالته إلى مُجْبِرة الشام : أولئك الذين سلبوا الإنسان كل عناصر القدرة والإرادة والاختيار ، وحكموا بجبريته فى المسلك والفعل والتصرف (١) .

ومع تقدم الزمن بالنثر الكتابى نرى هذا الضرب من الرسائل يدقّ فى موضوعه ، حتى يتناول قضايا ذات صبغة كلامية ، كالعلم والمشيئة والهداية والشقاء ، وهل هى سابقة فى نسبتها إلى الخالق ، أم مستأنفة فى نسبتها إلى المخلوق ، ويتعقّد فى إطاره الجدلى تعقداً نسبياً ، حتى يجمع إلى الاستدلال بالمنقول بعض التفنن فى الاحتجاج بالمعقول : وقد حاول عمر بن عبد العزيز — وله فى هذا الباب إسهام غير منكور — نحوًا من هذا الجدل الدينى فى حواره مع الذين كذبوا بالقدر . حين كتب إليهم محذراً ومفنداً :

« . . . وبلغكم أنى أقول : إنَّ الله قد علم ما العباد عاملون . فأنكرتم ذلك ، وقد قال تعالى : « إنَّا كاشفو العذاب قليلا إنكم عائدون »(٢). وقال : « ولو رُدّوا لعادوا لما نُهوا عنه » (٣) . وزعمتم فى قوله الله : « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » (٤) أن المشيئة فى أىّ ذلك أحببتم ، من ضلال أو هدى . والله يقول : « وما تشاءون إلاَّ أن يشاء الله رب

(١) أورد صاحب جمهرة رسائل العرب نص هذه الرسالة فى الجزء الثانى من هذه الجمهرة — ص ٢٥ ، فليرجع إليها من يشاء .
(٢) سورة الدخان — الآية : ١٥ .
(٣) الآية : ٢٨ من سورة الأنعام .
(٤) الآية : ٢٩ من سورة الكهف .

العالمين(١) » ، فبمشيئته لهم شاءوا ، وقد حرصت الرسل على هدى الناس جميعاً ، فما اهتدى إلاَّ من هداه الله ، وحرص إبليس على ضلالتهم جميعاً ، فما ضلّ منهم إلاَّ من كان فى علم الله ضالاً ، وأنكرْتُم أن يكون سَبَق لأحد من الله ضلالة أو هدى ، وأنكم الذين هديتم أنفسكم من دون الله ، وحجرْتموها عن المعصية بغير قوة من الله ، ومن زعم ذلك منكم فقد غَلَا فى القول ، لأنه لوْ كان شىء لم يسبق فى علم الله وقدره لكان لله فى ملكه شريك تنفذ مشيئته فى الخلق دون الله ، والله يقول : « حبَّب إليكم الإيمان وزيّنه فى قلوبكم وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان (٢) » . وسميتم نفاذ الله فى الخلق حيفاً ، وقد جاء الخبر أن الله عز وجلّ خلق آدم فنثر ذريته بين يديه ؛ فكتب أهل الجنة وما هم عاملون ، وكتب أهل النار وما هم عاملون » (٣) .

فالبنْية الجدلية فى مثل هذا النص لا تقف ببساطة عند حد المؤاخذة أو التنديد ، أو تجاوز ذلك بالدعوة إلى التوبة والإنابة . وهى الدعوة التى ختم بها ابن عباس كتابه — الآنف الذكر — إلى مجبرة الشام ؛ ولا تمضى — كذلك — فى تدوير الأدلة وتشقيق البراهين إلى الحد الذى سنشهده عند متكلمى العصر العباسى وفلاسفته ، ولكنها تقع بمنزلة بين هذين الحدين . وهى تلجأ فى الاحتجاج إلى ثلاثة مستويات :

(ا) مستوى الدليل القرآنى ؛ وفى هذا الصدد ترى الرسالة تحيل إلى النص القرآنى أربع مرات ، على الرغم من إيجازها أصلا .

---

(١) الآية ٢٩ من سورة التكوير .
(٢) الآية : ٧ من سورة الحجرات .
(٣) جمال الدين بن الجوزى : سيرة عمر بن عبد العزيز — ص ٦٩ .

(ب) مستوى الدليل السنىّ ، وفى هذا المجال تراها تنتهى بذلك الخبر الذى يصنف ذرية آدم إلى من كُتبت له الجنة ، ومن كُتبت عليه النار .

(حـ) مستوى البرهان العقلى ، وفى هذا المقام ترى الرسالة تلجأُ فى مسألة المشيئة إلى الاحتجاج بموقف الرسل من أممهم ، وقد كانوا حريصين على هداية الناس جميعاً ، ولو كان الأمر معلقاً بمشيئة العبد لأفضى هذا الحرص إلى الغاية المنشودة منه ، ولكن الواقع يُرينا أنه لم يهتد من هؤلاء إلاّ من شاء الله هدايته . وتلجأُ فى مسألة العلم والقدر إلى تعليقهما بالتوحيد ؛ إذ إن القول بوقوع « ما لم يسبق فى علم الله وقدره » يفضى إلى الزعم بأن له شريكاً فى الملك ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ومع ذلك ، فإن الاتّكاء على الأدلّة النقلية من الكتاب والسنة كان — حتى هذه المرحلة — أكثر من الاتكاء على البراهين العقلية ، وحتى فى تلك الحالات التى شهدت جدلا مذهبياً بين شراذم الفرقة الواحدة ، كان الاحتجاج العقلى يحتل المرتبة الثانية بعد النصوص الشرعية . وإنه لمن العجيب أن نرى كل شرذمة وقد قنعت من تأويل هذه النصوص بما يؤيد وجهة نظرها — فقط — وينقض وجهات نظر المخالفين ، وكأنها ترى بعض الكتاب وتغض البصر عن بعضه ، أو كأنها وقد احتجّت بالمنقول قد أخضعته ثانية للمعقول ، ولمعقولها هى على وجه التحديد .

ها هو نجدة بن عامر يكتب إلى أستاذه السابق نافع بن الأزرق ،

محاوراً إياه فى شعب الخلاف التى فرقت بينهما، والتى كانت فى حد ذاتها شعباً فرعية ، كما أشرنا من قبل ، لولا خطورة النتائج التى ترتبت عليها . ستلحظ أن أسانيد المحاورة لدى الرجلين قرآنية خالصة ؛ فعلى حين يحتج « نجدة » لإعذار القاعدين والضعفاء بقوله تعالى : « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله (١) » ، ترى « نافعاً » يؤمن بنقيض هذا الرأى ، أى بتكفير القعدة ، ويُخضع منقول نجدة لمعقوله هو ، فيقصر معنى الآية السابقة على الضعفاء والمرضى الذين كانوا بمكة « مقهورين محصورين ، لا يجدون إلى الهرب سبيلا . . . وهؤلاء — كما يكتب نافع ، وإشارته إلى القاعدين بغير عذر — قد فَقُهوا فى الدين ، وقرأوا القرآن ، والطريق لهم نهج واضح ، وقد عرفْتَ ما قال الله عز وجل فيمن كان مثلهم ؛ إذ « قالوا كنّا مستضعفين فى الأرض »، فقيل لهم : « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها (٢) » ، وقال : « فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله» (٣) ، وقال : « وجاء المعذِّرون (٤) من الأعراب ليُؤْذَن لهم » ، فخبّر بتعذيرهم وأنهم كذَبوا الله ورسوله ، وقال : « سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم » ، فانظر إلى أسمائهم وسماتهم . . » (٥) .

---

(١) الآية : ٩١ من سورة التوبة .
(٢) الآية : ٩٧ من سورة النساء .
(٣) الآية : ٨١ من سورة التوبة .
(٤) المعذر : من قصر فى الأمر موهما أن له فيه عذراً . الآية : ٩٠ من سورة التوبة .
(٥) انظر نص كتاب نجدة ورد نافع عليه فى :
ابن عبد ربه : العقد الفريد — تحقيق أحمد أمين وآخرين — لجنة التأليف والترجمة والنشر — القاهرة سنة ١٩٤٠ — حـ ٢ — ص ٣٩٦ — ٣٩٨ .

وفى قتل أطفال المخالفين يسوق نجدة بن عامر من القرآن والسنَّة ما يقطع بتحريمه : « . . . فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتلهم ، وقال الله عزَّ ذكره : ولا تزر وازرة وزر أخرى (١) . . . » ، فيرد عليه نافع بن الأزرق : « إن نبي الله نوحاً عليه السلام كان أعلم منيّ ومنك ، فقال : « ربّ لا تذرْ على الأرض من الكافرين ديَّاراً ؛ إنَّك إنْ تذرْهم يضلُّوا عبادك ولا يلدوا إلاَّ فاجراً كَفَّاراً »(٢). فسمَّاهم بالكفر وهم أطفال وقبل أن يولدوا ، فكيف كان ذلك فى قوم نوح ، ولا نكون نقوله فى قومنا ؟ ! ! (٣) ».

أمران قد لا يحتاج الإنسان إلى كبير جهد ليلحظهما فى هذا الحوار الذى تم عبر رسالتين متقابلتين ، وأول الأمرين أن طرفى المحاجّة يسلّمان بأولوية المنقول ، وإن اختلفا فى تأويله ؛ فنافع يسلّم بحجّية ما نقله « نجدة » . ولكنه يصرفه إلى المحصورين بمكة ، ويتجاهل فى الوقت ذاته أن بعض الآيات التى يحتج بها هو بدوره (فرح المخلفون . . الآية) إنما نزلت فى غزوة تبوك ، فإذا كانت ثمة خصوصية فى دليل أحدهما ، فإنها بالمثل موجودة فى دليل الآخر .

وثانى الأمرين ما نلمحه من جهارة نبرة الجدل، على الرغم من جزئية القضايا التى يتناولها. وهى نبرة تعلو إلى حد تكفير المخالفين: وتحريم أكل ذبائحهم وتوارثهم ، وتسويتهم بكفار العرب فى التخيير بين

---

(١) الآية : ١٨ من سورة فاطر .
(٢) الآيتان : ٢٦ ، ٢٧ من سورة نوح .
(٣) المصدر السابق — نفس الجزء والصفحات .

الإسلام والسيف : ثم هى نبرة تعلو هذا العلوّ مع أن من يجهرون بها ينتمون جميعاً إلى أصل مذهبي واحد ، هو الخروج ، وإن تفاوتت مواقفهم إزاء الوقت المناسب والظروف المواتية ، فالأزارقة فى هذا أكثر تشدداً : أما الشراذم الأخرى فأقلّ غلوًّا ، وأوفر مرونة ، مما كان يدفعهم أحياناً إلى إجازة الاستتار (أو التقيّة) ، وعدم خوض القتال باستمرار ضد مخالفيهم ، الأمر الذى سماه خصومهم « بالقعود » .

على أنّ بأس أهل الأهواء لم يكن بينهم فحسب ، بحيث يكون كلّ إبداعهم المكتوب جدلا مذهبياً ، بل كانت لهم علاقات بالدولة وولاتها وقادتها ، أى أنهم كانوا — من جهة أخرى — جزءاً مما يمكن تسميته سياسة الولاة والقادة ، كما كانت همومهم بعض مادة الرسائل الديوانية ، وتلك — فيما نحاول — غاية الفصل التالى من هذه الدراسة .

* * *

الفصل الرابع

سياسة الولاة والقادة

بين الرسائل الإدارية وكتب الفتوح

اقتضت سعة الدولة ، وانداح رقعة الفتوح ، مزيداً من تنظيم العمل فى الإدارة الأموية ، ومزيداً من توزيع الأعباء وتحديد المسئولية ، ومن ثم تضاعف عدد الولاة والقادة وأصحاب المناصب ، واشتهر منهم أناس ما زالوا ملء الذاكرة ، كزياد بن أبى سفيان ، وابنه عبيد الله ، والحجاج بن يوسف الثقفى ، والمهلب بن أبى صفرة ، وقتيبة بن مسلم . وقد كان التعامل مع هؤلاء وسواهم يقتضى غير قليل من الحكمة والدهاء ، بالإضافة إلى المتابعة والتوجيه الدائم ، ولذلك نما فن الكتابة الإدارية ، وازدهرت منه – بالتحديد – تلك الرسائل التى تتناول علاقات الخلفاء بعمّالهم على الأقاليم وأمرائهم على الجيوش ، ومن محصلة مراسلات أولئك مع هؤلاء حفظ ديوان الأدب العربى قدراً لا بأس به من التراث المنثور .

ومن المقرر أن هذا الضرب من الرسائل يتفاوت طرفاه رفعة وتدنياً ، لأنه إذا كان أحد الطرفين خليفة أو أميراً ، فإن الطرف الاخر من الولاة أو القادة ، ومن ثم يتسع المقام للتباين فى أساليب المخاطبة ، بين التقريع والاستعطاف ، والأمر والامتثال ، والتأنيب والاعتذار ،

والقسوة واللين . فإذا كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف الثقفى ، وَشَّتْ كتابته بما يحظى به من سطوة الملك ، وحفل أسلوبه بمستويات المؤاخذة والعقاب والتهديد ، اعتماداً على أنه الطرف الأعلى فى العلاقة بين المرسل والمستقْبِل :

« أما بعد . فقد بلغ أميرَ المؤمنين سَرَفُك فى الدماء ، وتبذيرك فى الأموال ، ولا يحتَمِل أميرُ المؤمنين هاتين الخَصْلتين لأحد من الناس . وقد حكم عليك أمير المؤمنين فى الدماء ، فى الخطأ الدّية ، وفى العمْد القَوَد (١) : وفى الأموال ردّها إلى مواضعها ، ثم العمل فيها برأيه ، فإنما أمير المؤمنين أمينُ الله ، وسِيّان عنده منع حق وإعطاء باطل . فإن كنتَ أردتَ الناس له فما أغناهم عنك ، وإن كنت أردتهم لنفسك فما أغناك عنهم ، وسيأتيك من أمير المؤمنين أمران : لين وشدّة ، فلا يُؤْنسنَّك إلّا الطاعة ، ولا يوحشنَّك إلا المعصية ، وظُنَّ بأمير المؤمنين كلّ شيء إلاّ احتمالك على الخطأ ، وإذا أعطاك الظَّفَر على قوم فلا تقتُلَنَّ جانحاً (٢) ولا أسيرًا . . » (٣) .

والنهى عن قتل الجانح والأسير يقودنا إلى ملابسات هذا الكتاب ، فلم يكتبه عبد الملك إلاّ حين بلغه غلو الحجاج فى قتل أسارى موقعة دير الجماجم (وهو موضع بظاهر الكوفة) ؛ وقد تفاوتت نبراته — على غلظها بعامة — بين التأنيب والوعيد ؛ واعتمدت فى الحالتين على

---

(١) القود : القصاص .

(٢) يقال جنح الرجل : أعطى بيديه وانقاد .

(٣) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر — طبع المطبعة البهية سنة ١٣٦٤ هـ — جـ ٢ — ص ١٣٦ — ١٣٧ .

نوع من التقابل والازدواج يظهر فى مثل قوله: « فى الخطأ الدّية ، وفى العمد القود ، . . منع حق وإعطاء باطل ، .. سيأتيك أمران: لين وشدّة ، فلا يؤنسنّك إلاّ الطاعة ولا يوحشنّك إلا المعصية » ، هذا مع مزيد عناية بترداد لقب « أمير المؤمنين » ، وكأنّه يلفت المرسل إليه لفتا إلى الخصيصة التى تعطيه حق الترخص فى مثل هذا الأسلوب التقريعى المباشر ، وهى الخصيصة التى توجب منه الخشية ، وله الطاعة والانقياد .

فى مواجهة ما يتّسم به أسلوب هذه الرسالة من جهارة النبرة وازدياد جرعة المؤاخذة والتأنيب ، نرى رد الحجّاج يبدأ باللين والموادعة ، ثم بالسلاسة والامتثال ، لينتهى - أخيراً - بالضراعة والاعتذار :

أما بعد ، فقد أتانى كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه سرفى فى الدماء ، وتبذيرى فى الأموال ، ولعَمْرى ما بلغتُ فى عقوبة أهل المعصية ما هم أهله ، وما قضيتُ حق أهل الطاعة بما استحقّوه ، فإن كان قتلى أولئك العصاة سرفاً ، وإعطائى أولئك المطيعين تبذيراً ، فلْيُسَوِّ غنى (١) أمير المؤمنين ما سلف ، وليَحُد لى فيه حدًّا أنتهى إليه إن شاء الله تعالى ، ولا قوة إلاّ بالله . ووالله ما علىّ من عقل (٢) ولا قود ، ما أصبتُ القوم خطأ فأَفديَهم، ولا أعْطَيْتُهُمْ إلاّ لك ؛ ولا قتلتُ إلاّ فيك ، وأمّا ما أنا منتظره من أمريك ، فألْيَنُهُمَا عِدَة ، وأعظمهُما محنة ، فقد عبأتُ للعِدة الجِلاد (٤) ، وللمحنة الصبر . . » (٥) .

---

(١) فليسوغنى : فليقرنى على ما فعلت .

(٢) العقل : الدية .

(٣) العدة : الوعيد .

(٤) الجلاد : التحمل والمدافعة .

(٥) المصدر السابق - حـ ٢ - ص ١٣٧ .

وردَ الحجاج نموذجي في تجسيده لمستويات الخطاب المتَّجه من الأدنى إلى الأعلى ، فهو يتدرج من الإنكار ، إلى طلب الإعذار ، إلى التذكير بسابق الإبلاء في خدمة المرسل إليه ، وفي المستويين الأول والثالث يتكىء على التراكيب الخبرية التي تضفي عليها صور القَسَم قوة الإقناع وطاقة التصديق :

« ولعمري ما بلغت . . . ، وما قضيتُ . . . ، والله ما عليّ من عتبل ، ولا أعطيتُهم إلاّ لك ، ولا قتلتُ إلا فيك . . » ؛ على حين يعتمد المستوى الأوسط (الاعتذار وطلب التسويغ) على الفرض الشرطي الذي يملي به الحجاج لأميره ، والذي يسايره به ، رغبةً في الوصول إلى غاية مطمئنة على كل حال :

إن كان قتلي العصاة سرفا	فليسوغني ما سلف ...
إن كان إعطائي المطيعين تبذيرا	وليحدّ لي حدا ...

وفي النهاية ليس سوى التسليم : « ولا قوة إلّا بالله . »

ولا يخلو من طرافة أن نقارن بين ذلك الأسلوب الذي يتطاير شررا في رسالة عبد الملك الآنفة الذكر ، أو في رسالته إلى خالد ابن عبد الله . عامله على البصرة (٧١ — ٧٤ هـ) ، وأسلوب آخر يتميز بالاستواء والتجرد والتعبيرات المحايدة . نقصد تلك التي لا يؤدي بها الانفعال الغاضب إلى الإكثار من صيغ التأنيب والتقريع والوعيد ، عنينا بذلك الأسلوب المقابل طريقة عمر بن عبد العزيز في رسائله الإدارية .

وقد كان عمر بن عبد العزيز من أكثر خلفاء الأمويين التجاء

إلى الرسائل الإدارية ، وعلى الأخص تلك التى تتناول مشكلات ديوانية تتعلق بالجند أو الجزية أو الخراج وما إلى ذلك ، ويبدو أن لهذه الظاهرة صلة بشدة مراقبته لنفسه ولبطانته وللعاملين معه بعامة ، ولكنّ هذه الرسائل تتميز فى جملتها بالإيجاز البالغ ، فلا ثرثرة ولا استطراد ، ولا حشو ولا فضول ، وبعضها لا يتجاوز كلمات معدودات ، مثل تلك الرسالة التى بعث بها إلى عمّاله موصيا إياهم باستخدام أهل القرآن : إيّاكم أن تستعملوا على شىء من أعمالنا إلّا أهل القرآن » ، أو تلك التى ردّ بها على عبد الحميد بن عبد الرحمن حين بعث إليه ذلك الأخير بأنه همّ أن يقتل رجلا شتم أمير المؤمنين ، فكتب إليه عمر : « او قتلتَه لأقدْتُكَ به ، فإنه لا يُقْتَل أحدٌ يشتم أحدًا إلّا رجل شتم نبيًّا (١) .. » .

وكثرةٌ من كتب « عمر » إلى عمّاله لا تكاد تند عن هذا الأسلوب المحايد ، وهى أشبه بالعظات فى امتلائها بالنَّفَس الدينى ، وتركيزها على التذكير بقدرة الله ، ثم هى أقرب إلى الوصايا فى اللجوء إلى الجمل الحكْمية ، وأفعال الحث الصريح ، والصيغ التعليمية المباشرة ، من أمثال ما كتبه إلى عدى بن أرطاة : « إذا أمكنتْكَ القدرةُ على المخلوق فاذكر قدرة الخالق عليك ، واعلم أن ما لك عند الله أكثر ممّا لك عند الناس » (٢) ، فمن الواضح أن التذكير « بقدرة الخالق » يقف فى مقابل التلويح بالقوة الذى اعتمد عليه عبد الملك فى تهديد

---

(١) أقدتك به : اقتصصت منك له .
العقد الفريد — نشرة الكتبى — ج ٣ — ص ١٧١ .
(٢) المصدر السابق — نفس الجزء والصفحة .

الحجاج ، وأنّ « ما عند الله » يصبح متكأ للترغيب والترهيب فى مقابل « ما عند أمير المؤمنين — عبد الملك — من لين وشدة » ، فمحور الاعتماد فى الحالتين مختلف ، عبد الملك يعتمد على قوة الإمارة التى فى يده ، وعمر يعتمد على قوة الله ، وهى بالقطع خارج أيدى البشر ، ومن ثم يتجافى أسلوبه عن التهديد ، إذ ليس فى يديه — من حيث تقواه — ما يهدد به ، ويدنو من التذكير المجرد ، واستحضار مشاهد القيامة ، والجنة والنار : « يا أخى — يكتب عمر لأحد عماله — أذكّرك طول سهر أهل النار فى النار مع خلود الأبد ، وإيّاك أن يُنْصَرَف بك من عند الله ، فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء » ، وتتمة الموقف أن العامل الذى أرسل إليه الخطاب لم يلبث أن قدم على عمر ، قائلا لأميره فى مزيج من الهلع والاعتذار : خلعت قلبى بكتابك ، لا أعود إلى ولاية أبدا حتى ألقى الله تعالى . (١)

ومن الرسائل التى تتعلق بسياسة القادة ما نسميه كتب الفتوح ، ففى مجتمع كمجتمع الإسلام ، غايته نشر العقيدة ، والانداياح بها فى الآفاق ، كانت الفتوح وما يحفّ بها بمثابة الوقائع اليومية المتجددة ؛ وكانت علاقات الخلفاء والأُمراء بقادة الجند ورؤساهم علاقات متحركة ، فيها من التوتر والجدل أكثر مما فيها من مطلق الطاعة والسكون ، ضرورة أن قائد الجند يكون — عادة — أعلم بظروف جنوده ومقتضيات معركته ، وقد لا يرضى الخليفة أو الأمير عن تقويمه لهذه الظروف والمقتضيات ، ومن ثم يتولد نوع من التراشق الكتابى

---

(١) ابن الجوزى — سيرة عمر بن عبد العزيز — ص ١٠٠ .

الطريف بين الجانبين : وفى معظم الأحوال كان محور هذا التراشق رغبة أحدهما فى تعجّل القتال ورغبة الآخر فى التريث ، والذى يتعقب تطور النثر الكتابى فى العصر الأموى تدهشه هذه الثنائيات الملحوظة فى كتب القتال ، مرة هى بين عبد الملك والحجاج ، وثانية هى بين سليمان بن عبد الملك ويزيد بن المهلب ، وثالثة هى بين الحجاج والمهلّب ، أو الحجاج وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، ولهذا الأخير — بخاصة — مع الحجاج واقعة مشهورة أفضت إلى فتنة ، إذ كان على رأس الجند الذى وجهه الحجاج لفتح سجستان ، فلما حقق شطرا من هدفه قنع به حتى تعينه الظروف على استكمال غايته من الفتح ، وكتب بذلك إلى الحجاج ، فأرسل إليه الحجاج ردًّا على خطابه :

« أما بعد ، فإن كتابك أتانى ، وفهمت ما ذكرت فيه ، وكتابك كتاب امرىء يحب الهدنة ، ويستريح إلى الموادعة (١) ، قد صانَع عدوا قليلا ذليلا . قد أصابوا من المسلمين جندا كان بلاؤهم حسنا ، وغَنَاؤهم (٢) فى الإسلام عظيما . لعمرُك يابن أمّ عبد الرحمن ، إنّك حيث تكفّ عن ذلك العدو بجنْدى وحدّى (٣) ، لسخىّ النفس عمّن أُصيب من المسلمين !! إنّى لم أعْدُدْ رأيك الذى زعمت أنك رأيتَه رأى مكيدة ، ولكنى رأيت أنّه لم يحملك عليه إلّا ضعفك والْتياث (٤)

(١) الموادعة : المسالمة .
(٢) غناؤهم : سدادهم وكفايتهم .
(٣) المراد به العدة المتخذة للقتال .
(٤) التياث الرأى : فساده واختلاطه .

رأيك ، فامض لما أمرتك به من الوُغول فى أرضهم ، والهدم لحصونهم ، وقتل مُقاتِلتهم ، وسبْى ذَرَاريّهم . » (١)

والذى حدث أن ابن الأشعث لم يمض لما « أمر به » ، وأنه خلع طاعة الحجاج ، بل وبيعة عبد الملك ، وتبعه فى ذلك حشد كبير من جنده ورعاياه فى فارس ، ولكن ذلك وما تلاه ليس بيت القصيد ، فالذى يعنينا من هذه الواقعة هو المادة الكتابية التى رويت فيها ، ثم ما تومىء إليه هذه المادة من أن كتب القتال كانت تلجأ إلى مستوى خاص فى انتقاء المتن اللغوى والتعامل معه . ولا شك أنه قد لفت نظرنا استغلال الحجاج لأمثال هذه الوحدات التى تتراوح بين المفردات والتعبيرات الاصطلاحية : المدنة ، الموادعة ، صانع عدوا ، كان بلاؤهم حسنا ، كفّ عن العدو ، رأى مكيدة ، الوغول فى الأرض ، هدم الحصون ، قتل المقاتلة ، سبى الذرارى ، إلخ .

أمّا حين يكون هذا الضرب من الرسائل متجها من الأدنى إلى الأعلى فإن أسلوبه لا يخلو من ضراعة النبرة وفرط تمجيد المخاطب ، وغالبا ما يكون فى هذه الحالة تبشيرا بنصر ، أو تهليلا لفتح . فتشيع فيه عبارات الجذل ، والحمد والشكر على النعمة ، وتغمر النسق الكلامى صيغ المبالغة ، والترادف بالعطف ، وتوكيد الأحداث بالمفاعيل المطلقة ، وتلك جميعا ظواهر أسلوبية تترجم الانفعال بالموقف ، تماما مثلما ترجمت هذه الظواهر انفعال يزيد بن المهلب بفتح جرجان

(١) ابن جرير الطبرى : تاريخ الرسل والملوك . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم — نشر دار المعارف — مصر سنة ١٩٦٤ — ج ٦ — ص ٣٣٤ — ٣٣٥ .

وطبرستان سنة ٩٨ هـ ، فكتب إلى أميره سليمان بن عبد الملك : « .... إن الله قد فتح لأمير المؤمنين فتحا عظيما . وصنع للمسلمين أحسن الصنع ، فاربّنا الحمد على نعمه وإحسانه ... فتح الله ذلك لأمير المؤمنين ، كرامةً من الله له ، وزيادة فى نعمه عليه.... » (١)

ومن الوثائق ذات العلاقة بالفتوح كتب العهود ، وهى الكتب التى تبذل فيها عهود الأمان أو مواثيق الصلح لسكان الأقاليم المفتوحة ، وتكاد تخلو خلوا تاما من آثار التفنن فى التصوير والصنعة . باعتبار أنها عقد بين طرفين على شروط بعينها ، وليس من المستساغ تعتيم هذا العقد أو تعمية هذه الشروط بأى تحليق كلامى يبعدهما عن المقصود ؛ وقد صالح حبيب بن مسلمة أهل تفليس (فى أرمينيا) فكان عهده لهم على حمايتهم . وتأمين أنفسهم وأموالهم . فى مقابل الإقرار بالجزية . وقرى المجتاز بهم من المسلمين . فإن أسلموا فإخوة فى الدين ، وإن تولوا فليس سوى الحرب من سبيل : « ... هذا كتاب من حبيب بن مسلمة لأهل تَفْليس من جُرْزَانَ أرض الهُرْمز ، بالأمان على أنفسكم وأموالكم وصوامعكم وبِيَعكم وصلواتكم ، على الإقرار بصغار الجزية ، على كل أهل بيت دينار واف ؛ ولنا نصحكم ونصركم على عدوّ الله وعدوّنا . وقِرى المجتاز ليلة من حلال طعام أهل الكتاب ، وحلال شرابهم . وهداية الطريق فى غير ما يُضَرّ فيه بأحد منكم ؛ فإن أسلمتم . وأقمتم الصلاة . وآتيتم الزكاة . فإخواننا فى الدين وموالينا ، ومن تولّى عن الله ورسله

---

(١) تاريخ الطبرى — ٦ — ٥٤٤ .

وكُتبه وحزبه فقد آذنّاكم بحرب على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين ... » (١) .

وكما ترى ، لا شماتة بالمغلوبين ، ولا تقريع على سابق حرب ، ولا انتشاء بسكْرة النصر ، كما يحدث عادة فيما سوى ذلك من كتب الفتح ، وإنما عبارات قاصدة ، وتعاهُد على البذل المتبادل ، وتواضُع على الأمان فى مقابل الوفاء بأُمور مشروطة ، فإن خان الآخرون فلا عهد لهم ولا أمان . هل نقول إن هذا اللون من كتب العهود - فى قصده ومباشرته - أقرب ما يكون شبهاً بالنثر العلمى والتاريخى ؟ ومواده المحدودة المعدودة ، ألا تذكّرنا بالطابع التقريرى فى الرسائل الفقهية والمالية ؟ !!

---

(١) المصدر السابق - حـ ٢ - ١٦٢ - ١٦٣ .

الفصل الخامس

الرسالة التربوية

نريد أن نفهم الغاية التربوية فى هذا الضرب من الرسائل بأرحب مما يعنيه المفهوم الحديث لمصطلح التربية ، نريد أن نفهم هذه الغاية باعتبارها محصّلة لكل رسالة يكون من همّها أن تنقّى الذوق ، أو ترهف المشاعر ، أو تربى الضمير ، أو تقوم السلوك ، أو تسهم فى تعميق الصلات النبيلة بين البشر ، وتلك هموم لا يقتصر أمرها على أدب الكتابة فقط ، ولا على الأجناس النثرية وحدها ، بل هى – على وجه التحقيق – هموم كل أدب أصيل .

تحت هذا المفهوم الرحب يمكن أن تندرج الرسائل الاجتماعية والإخوانية ، وهى تشكّل فى النثر الأموى رافدًا لا مناص من الاعتراف بأنه محدود الحجم ، ولكنه ثابت الوجود والأثر ، ولعله سيلقى حظه من الرواج فى النثر العباسى ، بيد أنه فى الحقبة مدار الحديث لم يكن مجهولا .

والملحوظ أن هذا الرافد الاجتماعى لم يتعدّ فى بداياته حدود الإيجاز ، وأحيانا لم يكن النموذج منه ليجاوز سطورا قليلة ، أو حتى جملا معدودة ، وقد أورد ابن الجوزى فى «سيرة عمر» ، كما أورد ابن عبد ربه فى «العقد الفريد» طائفة من نماذجه تراوحت بين

التعزية والتهنئة والاعتذار ، ولكنها اتفقت جميعا فى اكتناز البِنْية وتقطير العبارة ، ضرورة أن تفتيق هذه الموضوعات ذات الصبغة الاجتماعية والإنسانية، والمضىّ بها إلى حدّ الاستقصاء أو قريب منه ، لم يكونا — بعد — من بين الظواهر العامة فى النثر الأموى .

إن الذى حظى بطول نسبي يستحق التنويه ، هو الرسالة التربوية الخالصة ، ونعنى بها تلك التى تتوجه إلى تقويم الشخصية تقويما مباشرا ، وقد عرف منها منذ بداية العصر الأموى ذلك النمط الذى يبعث به الوالد إلى ولده ناصحا ، أو معاتبا ، أو منتقدا ، ومن أقدم نصوصه ما أثبته صاحب « صبح الأعشى » من كتاب معاوية بن أبى سفيان إلى ولده يزيد ، وهو الكتاب الذى شك فى أصالته بعض المحدثين ؛ لما فيه من تكلف المجاز ، وافتعال الازدواج ، وهلهلة النسج ، وهى أمور لاتناسب مستوى الإنشاء فى ذلك العصر المبكر (١) ، ونضيف من جانبنا إلى مرشّحات ذلك الشك ما نلمسه من حملة الكتاب الضارية على «يزيد»، ووصمه بكل قبيح، مع أن والده كان يهيئه آنذاك لخلافته ؛ وكان يصقل صورته فى أعين الآخرين ، ولا يعقل — والحالة هذه — أن يسهم بكتابه هذا فى تحريف تلك الصورة ؛ وأن يتولى بنفسه نقض ما يبنيه . وأن يقدم ولده فى ذلك الإطار الجهم القبيح . ويمكن أن ننوّه فى هذا المقام — على سبيل التمثيل لا الحصر — بكتاب عبد الملك بن مروان إلى بعض ولده ، أو بكتاب عمر بن عبد العزيز إلى « سهل » مولاه ومؤدب ولده ، فهما وأشباههما مما تكمل

---

(١) انظر : تطور الأساليب النثرية — جـ ١ — ص ١٠٠ — ١٠٢ .

به أبعاد اللوحة التى تريد إعطاءها للرسالة التربوية ، ولكننا نخشى أن يطول بنا الاسترسال قبل أن نوجه البصر إلى رسالة لعلها من أدق وأهم رسائل التربية السياسية فى نثرنا العربى ، كانت كذلك فيما مضى ، وما نخال إلا أنها ما زالت كذلك حتى الآن .

* * *

وهذه الرسالة لا تتجه من الخليفة إلى ولده كسابقتها ، بل تتجه من المحكوم إلى الحاكم ، وهى لا تتجه إليه بالمدح والتأييد ، كما هو متوقع : بل إنها تقنّن ، وتنظّر وترشد ، وتذكّر ، وترسم ملامح الإمام العادل فى حيدة وتجرّد وموضوعية .

والرسالة من الحسن البصرى (أبى سعيد الحسن بن أبى الحسن يسار البصرى ٢١ — ١١٠ هـ) إلى عمر بن عبد العزيز فى « صفة الإمام العادل » ، ولعمر بالذات ضلع سابق فى رسائل قريبة من تلك ، حيث كان الطرف المرسل إليه فى بعض كتب العظة والادّكار ، سواء تلك التى كان يرسلها إليه « طاوس بن كيسان » ، أو تلك التى كان يبعث بها إليه « غيلان بن مسلم الدمشقى » ؛ ولكنّ ما يجعل لرسالة الحسن أهمية خاصة أنها — من ناحية — تضع أيدينا على أسلوب واحد من أبرز أعلام النثر الأموى . وأنها — من ناحية أخرى — تطول طولا نسبيًّا . وتسهب إلى حد يصدق معه القول إنها من نقاط التحوّل فى مسيرة الأدب الكتابى ، كما أنها من بواكير المطوّلات فى هذا المقام (١) .

(١) أوردها صاحب العقد فيما يناهز الأربعين سطراً ، وهو حجم فوق المعهود فى رسائل الصدر الأول من العصر الأموى . انظر الجزء الأول من هذا الكتاب — تحقيق أحمد أمين وآخرين — ص ٣٩ — ٤٢ .

ولا تخلو الرسالة — على الرغم من طولها — من وحدة فنية أساسها وحدة الموضوع وتجانُس الخواطر المتعلقة به ؛ فهى تستهلُّ بجمل متعاطفة متعاقبة تترادف على إبراز أهمية الإمام العادل ، فهو « قِوام كل مائل ، وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونَصَفَة كل مظلوم ، ومفزع كل ملهوف » ، ثم تتدرّج من ذلك إلى التأكيد على علاقته بالشطر الأضعف فى الرعية ، الفقراء واليتامى والمساكين بخاصة ، فهو « وصىّ اليتامى ، وخازن المساكين ، يربّى صغيرهم ، ويَمُون كبيرهم » ، وهو أمين الله فيهم ، والقائم بينه وبينهم ، والحافظ لما ائتُمن عليه من شئونهم ، فإذا لم تزجره مراقبة النفس فلتردعه خشية الموت : « واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده ، وقلة أشياعك عنده ، وأنصارك عليه ، فتزوّد له ، ولما بعده من الفزع الأكبر .... لا تنظر إلى قدرتك اليوم ، ولكن انظر إلى قدرتك غدا ، وأنت مأسور فى حبائل الموت ، وموقوف بين يدى الله فى مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين ، وقد عَنَت الوجوه للحى القيوم .. » .

وتلفتنا محاولة استحضار المستقبل ممثلا فى مشهد القيامة ، والوقوف فى مجمع النماذج العليا من الملائكة والمرسلين ، إلى تطور القيم الجمالية فى هذه الوثيقة تطورا ملحوظا ، حيث تنهض الصورة الفنية بوظيفة توكيدية ، تتجلى فى إيضاح الفكرة ، أو البرهنة عليها ، أو مزيد من الإقناع بها ، ومن بين الطرق العديدة لبناء هذه الصورة يزداد الاتّكاء على متواليات الصور التشبيهية ؛ فالإمام العادل « كالرّاعى الشفيق على إبله ؛ الرفيق الذى يرتاد لها أطيب

المرعى ، ويذودها عن مراتع الملكة ، ويحميها من السباع ، ويكنُفُها (١) من أذى الحر والقرّ (٢) .. » ، وهو كذلك « كالأب الحانى على ولده ، يسعى لهم صغارا ، ويعلّمهم كبارا ، يكتسب لهم فى حياته ، ويدّخر لهم بعد مماته » ، وهو أيضا « كالأم الشفيقة البرّة الرفيقة بولدها ، حملتهُ كُرها ووضعته كرها ، وربّته طفلا ، تسهر بسهره ، وتسكن بسكونه ، ترضعه تارة ، وتفطمه أخرى ، وتفرح بعافيته ، وتغتمّ بشكايته » .

ومحور الصورة فى كل هذه الحالات لا يكاد يخرج عن إطار الحرص الذى تمثله علاقة الراعى بإبله ، أو الوالد بولده ، أو الأم بابنها ، مع خصائص إضافية تتجلى فى كل حالة على حدة .

أما على المستوى الأسلوبى فيبدو واضحا تأثير البيان القرآنى ، بالإيماء إليه تارة ، كقوله : « حَملتْه كرها ووضعته كرها » ، وكقوله : « فالأسرار ظاهرة ، والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها » ، وكقوله : « ولا تسلّط المستكبرين على المستضعفين ، فإنهم لا يرقبون فى مؤمن إلاً ولا ذمة ، فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك ، وتحمل أثقالك وأثقالا مع أثقالك » ، أو بالاقتباس الصريح ، تارة أخرى ، كقوله : « واعلم يا أمير المؤمنين أنّ لك منزلا غير منزلك الذى أنت فيه ، فتزوّد له ما يصحبك (يوم يفرّ المرءُ من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه) . واذكر يا أمير المؤمنين (إذا بعثر ما فى القبور وحُصِّل ما فى الصدور) » .

---

(١) يكنفها : يحفظها .
(٢) القر : البرد .

ولم يدخل الإيقاع النثري - بعد - طور الصنعة أو الاجتباك أو التعقيد ، سواء فيما يتعلق بالتردد الصوتي أو اطّراد الصيغة أو تكرار النسق التركيبي ؛ فثمة تماثل مّا في بعض الفواصل : يكتسب لهم في حياته ، ويدخر لهم بعد مماته ... والإمام العادل كالقلب بين الجوارح ، تصلح الجوارح بصلاحه ، وتفسد بفساده .. » ، وثمة في هذه الفواصل ضرب من التوازن والازدواج ، يتجلى في توازى بنياتها وصيغها : « قوام كل مائل / ، وقصد كل جائر / ، وصلاح كل فاسد / ، ونصفة كل مظلوم / ، ومفزع كل ملهوف » ؛ ولكنها جميعا ترد وعليها طابع البديهة ، دون أن تلمح فيها أثرا للتكلّف أو الافتعال ، وهي - على أية حال - ليست من الوفرة والتراكم إلى الحد الذى يثقل كاهل الرسالة أو يطفئ فيها طاقة البوح والإفضاء .

الفصل السادس

حداثة الرؤية

على أعتاب المائة الثانية للهجرة ، وعلى قلم أبي غالب عبد الحميد ابن سعيد العامري ، الكاتب (١) ، ينداح موضوع الرسالة إلى آفاق يتجلّى فيها عنصر الحداثة بأجلى مظاهره ، ونقصد «بالحداثة» هنا ما يشمل معنى « الجدّة » ، بحيث تكون زاوية الرؤية غير مطروقة ، أو – على الأقل – لم يكثر طرقها من قبل ، وما يشمل – أيضا –

(١) من أهل الشام ، ويقال إنه كان فى أول أمره معلم صبية بالكوفة ، ثم اتصل بمروان ابن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، وصحبه وانقطع إليه ، ولما اشتد الطلب على مروان ، وتتابعت هزائمه على أيدى العباسيين قال لكاتبه : القوم محتاجون إليك لأربك ، وإن إعجابهم بك يدعوهم إلى حسن الظن بك فاستأمن إليهم ، وأظهر الغدر بى ، فلعلك تنفعنى فى حياتى أو بعد مماتى ، فقال له عبد الحميد :

أسِرّ وفاء ثم أظهر غــــدرة　　فمن لى بعذر يوسع الناس ظاهره

ثم أضاف : يا أمير المؤمنين ، إن الذى أمرتنى به أنفع الأمرين إليك ، وأقبحهما بى ، ولكنى أصبر حتى يفتح الله عليك ، أو أقتل معك . فلما قتل مروان استخفى عبد الحميد ، حتى فاجأه الطلب وهو عند صديقه عبد الله بن المقفع ، فقال الذين دخلوا البيت : أيكما عبد الحميد ؟ فقال كل واحد منهما : أنا ، خوفا على صاحبه ، إلى أن عرف عبد الحميد فأخذ ، وسلمه السفاح إلى صاحب شرطته ، فقيل إنه كان يحمى له طستا ويضعه على رأسه ، إلى أن مات سنة ١٣٢ هـ . انظر فى تفصيل حياته :

جمال الدين بن نباتة المصرى : سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – دار الفكر العربى – القاهرة سنة ١٩٦٤ – ص ٢٣٧ – ٢٤٢ ، وقيل إن مقتله كان بمدينة بوصير المصرية بعد أن فر إليها مع مروان بن محمد : البيان والتبيين – تحقيق عبد السلام هارون – جـ ١ – ٢٠٨ .

تعبير التجربة الكتابية عن خبرة عصرية تعكس روح الآونة ، وتجلو الحس الحضرى الذى أخذ يطبع حياة الجماعة منذ أخريات العهد الأموى ، ثم ما يشمل – أخيرا – فكرة الابتداع ، بمعنى أن لا يقتصر هدف الوثيقة المكتوبة على مجرد « التوصيل » ، أو نقل الدلالة ، بل يكون ثمة مجال لتشقيق هذه الدلالة وتدويرها ، لمعاملتها فنيا ، لتعليق حركتها بحركة الذهن والتخيّل ، بدلا من الوقوف بها عند حدّ رصد الواقع ، فالحداثة من هذا المنظور ليست فى التِّقْنِيّة الكتابية فقط ، وإنما هى قيمة داخلية ، محاولة دائبة للاكتشاف والتجريب ، تجاوز للأنماط الجاهزة فى التناول والتعبير ، والتماس مالم يصبح بعد نمطا أو طريقة ، الأمر الذى يضفى على عملية الإبداع طابعا حركيا ، ويجعل منها مشروعا مستأْنَفًا ، وليس مجرد مثل تكرارى (١) .

فى رسالته عن« الشطرنج » تشعر – بالإضافة إلى طرافة الموضوع – أن عبد الحميد الكاتب لا يريد أن يذكّرنا – فقط – تحريم اللعب به ، وتشدد الخليفة فى معاقبة المثابرين عليه ، بل تحس أنه يجتلى مذخوره من اللغة ، ومقدرته على الاسترسال ، وطاقته فى تشعيب موضوعه واصطناع أدواته ، أما فى رسالته عن أول مولود ولد له فتجد أن بواعث جذله بالقادم الصغير لا تقتصر على الشائع المعلوم من أن الولد إحياء لذكْر أبيه ، وعمل صالح يستمر بعد وفاته ، ودعاء وشفاعة فى صلواته وحجه وكل مواطن طاعته ، وإنما تتعدى ذلك إلى دائرة وجدانية غير نمطية ، دائرة تستغرق طبيعة المشاعر الإنسانية ، واشتياقها الفطرى

---

(١) أنظر الأدونيس كلمة فى مفهوم التجريب والتجاوز : زمن الشعر – بيروت سنة ١٩٧٨ – ص ٢٨٦ وما بعدها .

إلى البنوّة ، وولعها التلقائى بأن تَجتلى ذاتها فى المرايا من أصلابها :
« إذا نظرتُ إلى شخصه تحرّك به وجدى ، وظهر به سرورى ، وتعطّفت عليه منّى أَنَسَةُ الولد(١) ، وتولّت به عنّى وَحشةُ الوحدة ، فأنا به جذِل فى مغيبى ومشهدى ، أحاول مسّ جسده بيدى فى الظُّلم ، وتارة أعانقه وأرشفه ، ليس يَعْدِله عندى عظيمات الفوائد ، ولا مُنْفِسات(٢) الرغائب ، سرّنى به واهبه لى على حين حاجتى ، فشدّ به أزْري ، وحمّلنى من شكره فيه ما قد آدَنى (٣) بثِقَل حِمْل النعم السالفة إلىّ به ، المقرونة سرّاؤها فى العجب بتارات ما يدركنى به من رقة الشفقة عليه ، مخافة مجاذبة المنايا إيّاه ، ووجَلاً من عواصف الأيام عليه .. » (٤)

فالإحساس بالولد قديم قدم المشاعر البشرية . ولكن الحديث هنا هو زاوية الرؤية ، أو طريقة المعالجة . وفى هذه الطريقة يستعين الكاتب ببعض التفاصيل الإنسانية غزيرة الدلالة : « تَعَطَّفَت عليه منى أنسة الولد » ، « أحاول مسّ جسده بيدى فى الظلم ، وتارة أعانقه وأرشفه » ، « ... المقرونة سراؤها فى العجب بتارات ما يدركنى به من رقة الشفقة عليه ، مخافة مجاذبة المنايا إياه » ؛ فالائتناس بالولد . وتحسّسه ليلا مخافة الأذى . وتقبيله فيما يشبه الارتشاف . واختلاط الجذل بالخشية عليه من المنايا — كل تلك لمسات تصويرية عامرة بصدق الفطرة ، بالإضافة إلى أنها ذات مذاق إنسانى يكاد يكون فريدا .

---

(١) أنسة الولد : الائتناس بالولد وزوال الوحشة به .
(٢) منفسات : نفائس .
(٣) آدنى : أعياني وأعجزنى
(٤) جمهرة رسائل العرب — جـ ٢ ص ٥٤٩ — ٥٥٠ ..

ولا يحسن فى مقام الحداثة إغفال رسالته فى وصف الصيد ، والصيد فى حد ذاته ليس جديدا ، ولكن الجديد هو ذلك المناخ المترف الذى تمارس فى ظله عملية الصيد : أدوات معدة ، وجوارح مدربة ، وخيل معلمة ، ومطاردة تتم لا بدافع الحاجة ، وإنما بقصد التسلية والرياضة ، ثم – وهو الأهم – أن تلك الرسالة تحقق فى مجال الكتابة الوصفية مستوى من التنامى الدرامى يعتبر سابقا لأوانه ، بالإضافة إلى ما فيها من دقة الرصد ، وتعقب جزئيات الصورة ، واستقصاء أطراف اللوحة ، على نحو لا نلحظه بوفرة إلّا فى النثر العباسى .

وتبدأ الرسالة بما يشبه تخطيط مجال الحدث فى القصة العصرية :

« خرجنا إلى الصيد بأغذى الجوارح ، وأثقف الضوارى ، أكرمها أجناسا ، وأعظمها أجساما ، وأحسنها ألوانا ، وأحدّها أطرافا ، وأطولها أعضاء ، قد ثُقِّفت بحسن الأدب ، وعُوِّدت شدة الطلب ، وسَبَرَتْ (١) أعلام المواقف ، وخَبَرَت المجاثم (٢) ، مجبولة (٣) على ما عُوِّدت ، ومقصورة على ما أُدّبت ، ومعنا من نفائس الخيل المخبورة الفراهة (٤) ، من الشُّهرية (٥) الموصوفة بالنَّجابة ، والجرْى والصلابة ، فلم نَزَلْ بأخفض سير ، وأثقف طلب ، وقد أمطرتْنا السماء مطرا متداركا (٦) ، قرُبَتْ منه الأرض ، وزَهَرَ البَقْلُ ، وسكن القَتَام من مُثار السنابك (٧) ،

(١) سبرت : عرفت وخبرت .
(٢) المجاثم : أماكن الجثوم .
(٣) مجبولة : مفطورة .
(٤) الفراهة : جودة السير .
(٥) الشهرية : ضرب من الخيل يخالف الخيل العراب ، عظيم الخلقة ، غليظ الأعضاء .
(٦) متداركاً : متتابعاً .
(٧) القتام : الغبار الذى تثيره الخيل ، السنابك : حوافر الجياد .

ومتشعّبات الأعاصير ، مُهلة أن سرنا غَلَوات (١) ، ثم برزت الشمس طالعة ، وانكشفتْ من السحاب مُسْفِرة ، فتلألأت الأشجار ، وضحك النُّوّار ، وانجلت الأبصار ، فلم نر منظرا أحسن حسنا ، ولا مرموقا أشبه شكلا ، من ابتسام نور الشمس عن اخضرار زهرة الرياض .. ». (٢)

ستلحظ لأول وهلة أنك بإزاء كاتب محترف ، يروّض الكلمة ، ويرادف بين الصور ، ويستعرض محصوله من اللغة ، ومهارته فى توليد الإيقاعات النثرية على اختلافها ؛ فتوازن الجمل يبدو فى أمثال :

(١) أعدى الجوارح = أثقف الضوارى ← أفعل تفضيل + مضاف إليه

(ب) أكرمها أجناساً = أعظمها أجناساً = أحسنها ألواناً = أحدّها أطرافاً = أطولها أعضاء ← أفعل تفضيل + ضمير مضاف إليه + تمييز .

(ح) سبرتُ المواقف = خبرت المجاثم ← صيغة الماضى + صيغة جمع التكسير المفعول .

(د) أحسن حسناً = أشبه شكلا ← أفعل تفضيل + تمييز .

أما تجنيس فواصل الجمل فيتجلى فى مثل :

• ثُقِّفت بحسن الأدب ؛ عوّدت شدة الطلب .

• مجبولة على ما عوّدت ، مقصورة على ما أُدِّبت .

• تلألأت الأشجار ، ضحك النوار ، انجلت الأبصار .

(١) جمع غلوة ، وهى مسافة رمية سهم ، أو هى من ثلاثمائة إلى أربعمائة ذراع

(٢) انظر نص الرسالة كاملا فى المصدر السابق – ح ٢ – ص ٥٤٤ – ٥٤٨ .

بيد أن آيات الصنعة ، وكانت ما تزال فى طور البدء ، لا تفضى إلى رخاوة البنية أو إثقالها ، فسرعان ما يتدرّج تخطيط المجال إلى وصف واقعة الصيد ذاتها ، وإن كانت هذه الواقعة لا تبدأ إلا بعد عوائق ، وبعد أن كان الحدث كله مهدّداً بالإخفاق بسبب غشيان الضباب : « لم تلبث أن علتّنا ضبابة تَقْصُر(١) طرف الناظر ، وتخفى سُبل السلام ، تغشانا تارة ، وتنكشف أُخرى ، ونحن بأُرض دمثة التراب ، أشبة (٢) الأطراف ، مُغدِقة (٣) الفِجاج ، مملوءة صيداً من الظباء والثعالب والأرانب ، فأدّانا المسير إلى غابة دونها مأْلَف الصيد ، ومجتمع الوحش ، ونهاية الطلب ، قد جاوزناها ونحن على سبيل الطلب ممعنون ، وبكل حَرّة جونة (٤) متفرقون ، فرجع بنا العود على البدء ، وقد انجلت الضبابة ، وامتدّ البصر ، وأمكن النظر ، فإذا نحن برَعْلة(٥) من ظباء ، وخِلْفة آرام (٦) يرتَعْن آنسات ، قد أحالَتْهُنَّ الضبابة عن شخصنا ، وأذْهَلَهُن أنيق الرياض عن استماع حِسّنا ، فلم نَعُجْ إلاَّ والضوارى لائِحة لهنّ من بُعْد الغاية ، ومُنْتَهَى الشاخص ، ثم مدّت الجوارح أجنحتها ، واجتذبت الضوارى مقاودها ، فأمرتُ بإرسالها على الثقة بمُحضِرِها (٧) ، وسرعة الجوارح فى طلبها ، فمرّت تحِفّ حفيف الريح عند هبوبها ، تسفّ (٨) الأرض سفًّا ، كاشفةً عن آثارها ،

---

(١) تقصر الطرف : تقلل مدى رؤيته .
(٢) أشبة : كثيرة الشجر .
(٣) مغدقة : مخصبة ريانة .
(٤) الحرة : الأرض ذات الحجارة السود ، الجونة : السوداء .
(٥) الرعلة : الجماعة من الظباء .
(٦) خلفة آرام : بقية من الظباء البيض .
(٧) من قولهم : أحضر الفرس أو الرجل ، أى وثب فى عدوه .
(٨) سف الطائر سفيفاً : مر على وجه الأرض فى طيرانه .

طالبة لخيارها ، حارشةً (١) بأظفارها ، قد مزّقتْها تمزيق الريح الجراد ، فمن صائح بها وناعر . وهاتف بها وناعق ، يدعو الكلب باسمه ، ويفديه بأبيه وأمه ، وخافق يطلبه الرمح . وطامح يمنعه ، وسانح قد عارضه بارح (٢) ، قد حيّرتنا الكثرة . وأهجتْنا (٣) القدرة ، حتى امتلأتْ أيدينا من صنوف الصيد ، واللهُ المنعم الوهّاب » .

وكما يحدث عادة فى النثر القصصى والمسرحى نرى عائقاً يعترض تدفق الحدث . حتى إذا تغلبت الشخصية عليه كان فى ذلك إلهاب الصراع ، وقد تمثل العائق أولا فى تلك الضبابة التى أعجزت النظر ، وجهّلت المعالم ، ولكنها لا تلبث أن تنكشف عن حشد من الظباء والثعالب والأرانب ، وهنا تقبل لحظة التحول التى تؤذن بانقلاب الموقف من سحب الخشية والتوجّس إلى تباشير الأمل فى الصيد ، ولو لم يكن العائق الآنف لما كانت ثمة لذة فى التحول الذى عبرت عنه الرسالة بأسلوب المفاجأة : وإذا نحن برعلة . . إلخ .

وتتلو ذلك لحظة الصراع . حادثة الصيد ذاتها ، وبدلا من الأوصاف السكونية . والتقريرات الثابتة فى وصف الخيل أو الشمس أو الأشجار ، نرى أفعال الحركة تتصدّر الجمل المصوّرة للصراع ، ونجد أحْداث هذه الأفعال لا تخلو فى كل الحالات من مجاذبة أو حركة أو صوت :

— مدت أجنحتها .

— اجتذبت مقاودها .

---

(١) حرشه حرشاً : خدشه ، وحرش الصيد : هيجه .

(٢) السانح من الطيور ما مر من اليسار إلى اليمين ، والبارح بعكسه .

(٣) أهجه بالشىء . جعله يلهج به ، أى يولع به ويثابر عليه .

- مرت تحف حفيف الريح .

- تسفّ الأرض سفاً .

- مزقتها تمزيق الريح الجراد .

بل إن صيغ أسماء الفاعلين التي ترد أحوالا أو صفات مقترنة بهذه الأحداث . هذه الصيغ لا تفتقد أيضاً هذه السمة الحركية أو الصوتية : كاشفة عن آثارها ، حارشة بأظفارها ، صائح بها وناعر ، وهاتف وناعق ، خافق يطلبه الرمح ، طامح يمنعه ، سانح قد عارضه بارح » ، ومحصّلة هذا التفاعل بين الأحداث والأحوال والأوصاف أننا نلفى أنفسنا بإزاء لوحة حية ، عامرة بالتوثب والنشاط والجيشان ، حتى يأتى مختتم هذه اللوحة تتويجاً منطقياً للجهد المبذول ، للصراع الذى كان ، لذلك المزج العجيب بين أمشاج الضوضاء والركض والحفيف والطيران : « حتى امتلأت أيدينا من صنوف الصيد . . . » .

وتنامى الحدث على هذا النحو ، من تخطيط المجال ، إلى تصوير المطاردة . إلى تقرير الغاية ، وتلخيص العاقبة فى تلك العبارة الانفة المقتضبة ، يضيف إلى طرافة الموضوع درامية البنية ، بمعنى أنها تتطور تطوراً حنثيًا من السكون إلى الحركة ، ومن الحركة إلى السكون ، أو لِنَقُل إن المكان فيها - المجال - ما يلبث أن يتحرك رويداً رويداً حتى يندمج فى الزمان - تطور الحدث - اندماجاً شبه كامل ، ثم ما يزال الزمان يبطئ فى إيقاعه حتى يعود كما بدأ (١) ، وكأننا أمام

---

(١) فكرة اندماج الزمان فى المكان ، والعكس ، عبر الأعمال الأدبية ، هى فكرة فلسفية فى أساسها ، وقد أشار الشاعر والناقد الإنجليزى كولريدج S.T. Coleridge إلى فلسفة هذه الفكرة فى كتابه « سيرة أدبية Biographia Literaria » ، وخلاصة ما قاله : « إن فكرتنا عن الزمان تمتزج دائماً بفكرتنا عن المكان » . . . انظر :
Jan Watt, The Rise of the Novel, Penguin Books, 1963, P.26.

وحدة هرمية سفحاها البداية والنهاية ، وذروتها عملية المطاردة بكل ما تزخر به من حركة وحياة .

وربما بدا وكأننا وقعنا تحت إغراء الاسترسال : فرحنا نتحدث عن وحدة البنية ومعمار الرسالة . حين كان المقام مقام الحديث عن ابتداع الرؤية واستحداث الموضوع . والحق أن الجانبين لا ينفصلان ، وأن ما يبدو شكلا يتحول مما يحدثه من دلالة إلى موضوع ؛ وما يبدو موضوعيا هو فى التحليل الأخير شكلى ؛ ومن ثم يكون الفارق بين المستويين فارقاً نظرياً محضاً ؛ والموالاة بينهما فى المعالجة الأكاديمية لا تعدو أن تكون ضرباً من الترخص ، وربما يكون تناولنا لبنية الرسالة فى الفصول التالية ترخصاً من هذا القبيل .

• • •

الباب الثانى

جماليات الكتابة

فى العصر الأموى

الفصل الأول

البنية النموذجية

ليس من همّنا فى هذا المقام تقنين بنية الرسالة الأموية تقنينا تحكّميا ، فلذلك مكانه من مكتبة الدراسات البلاغية والنقدية ، ونقصر غايتنا على وصف هذه البنية من حيث هى واقعة أدبية ، أوّلا ، ثم تفسير هذه الواقعة الأدبية – ثانيا – كما تتجلى عبر الوثائق الكتابية الوفيرة التى أفرزها ذلك العصر : ومن ثمّ لا ننتظر فى هذه الحالة أن نحتكم احتكاما مطلقا إلى ما خلفه المتأخرون فى صناعة الإنشاء ، كعبد الرحيم بن شيث القرشى فى كتابه « معالم الكتابة » ، والقلقشندى فى موسوعته « صبح الأعشى » ، والشهاب الحلبى فى كتابه « حسن التوسّل إلى صناعة الترسّل » ؛ لأن هذه الذخائر وأمثالها تجنح إلى التقعيد فى الأساس ، كما أن نظرتها فى معظم الأحوال نظرة إلى حاضرها الراهن ، أكثر ممّا هى نظرة إلى الماضى البعيد ، بمعنى أنها تتصوّر الكتابة على النحو الذى انتهت إليه صنعة الإنشاء على مشارف العصر الأيوبى وما تلاه ؛ وليس من الإنصاف أن نقيس تراثا يرتبط بالحقبة الأموية فلسفة وإبداعا : بمقاييس فلسفية نقدية متأخرة على هذا النحو ، وإن لم تكن هذه المقاييس – فى كل الأحوال – غائبة عمّن يتصدّى لدراسة النثر الكتابى فى

العصر الأموى ، إذ يمكن الانتفاع بها ضربا من الانتفاع ، على الأقل من باب الاستئناس .

ويمكن أن يقال إن تقاليد أدب الرسالة فى صدر الإسلام وعصر بنى أمية قد كوّنت الأساس لأعراف الإبداع الكتابى فى الأعصر التالية ، بغضّ النظر عن الاختلاف فى مستوى الصنعة وطبيعة الموضوع . ويمكن تشكيل البنية النموذجية لهذه التقاليد على النحو التالى :

ا — البسملة .

ب — ترتيب المرسِل والمرسَل إليه :

جـ — التسليم .

د — التحميد .

هـ — صيغة الانتقال ، أو التخلص (أما بعد ، وبعد ، ونحوهما ..)

و — الموضوع .

وقد وصفْنا هذه البنية بأنها نموذجية ، وعنيْنا التشكيل الأمثل لتدرّجات الرسالة من ذكر اسم الله ، إلى ذكر المرسِل والمرسَل إليه ، إلى تحية المكتوب إليه بالسلام ، إلى حمد الله والإقرار بوحدانيته ، ثم صيغة الانتقال وما يتلوها مما كتبت الرسالة بشأنه . وذلك على نحو ما بعث به مُسْلم بن عقبة إلى يزيد بن معاوية بعد موقعة الحَرَّة (سنة ٦٣ هـ) ، حين يستهل بقوله :

« بسْم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله يزيد بن معاوية أمير المؤمنين

من مسلم بن عقبة ، سلام عليك ، يا أمير المؤمنين ، ورحمة الله ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلّا هو ، أما بعد : تولّى اللهُ حفظَ أمير المؤمنين والكفاية له ، فإنّى أخبر أمير المؤمنين - أبْقاه الله - أنّى خرجْت من دمشق ، ونحن على التعبئة التى رأى أمير المؤمنين يوم فراقنا بوادى القُرَى . . » (١)

غير أن هذا التشكيل قد يتعرض لألوان من التغيير ، بالتعديل أو الحذف ، أو التقديم والتأخير ، فقد لا ترد البسملة ، كما فى بعض كتب معاوية (٢) وزياد بن أبى سفيان ، وقد يتأخر التحميد إلى ما بعد صيغة الانتقال ، بل قد يحذف تماما ، ليحلّ محله توحيد الله ، والصلاة والسلام على رسوله ، كما صنع الحجاج فى صدر رسالته إلى قطرىّ بن الفُجاءة ، حين كتب إليه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من الحجاج بن يوسف إلى قطرى بن الفُجاءة ، سلام عليك ، الموحّد الله ، والمُصَلّى عليه محمد عليه السلام ، أما بعد ، فإنّك كنتَ أعرابيا بدويا ، تَسْتطْعِم الكِسْرَة ، وتخِفُّ إلى التّمْرة ، ثم خرجْتَ تحاول ما ليس لك بحق ... » ، ولأن مثل هذه النبرة ليست بذات ودّ ، ولأنها تدعو إلى المناجزة أكثر مما تدعو إلى الموادعة ، فإننا نرى قَطَرِيًّا يرد على خصمه بصيغة فى السلام لم تُستعمل منذ أن كان الرسول (ص) يوجّه إلى الكفار كتب الدعوة . يُفتتح رد

---

(١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة - ج ١ - ص ١٩٨ - ١٩٩

(٢) انظر من نماذج هذه الرسائل البتراء كتاب معاوية إلى ابنه يزيد فى :
أبو العباس أحمد القلقشندى - صبح الأعشى - المطبعة الأميرية سنة ١٩١٥ - جـ ٦ - ص ٣٨٧

قطرى هكذا : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من قطرى بن الفجاءة إلى الحجاج بن يوسف ، سلام على من اتَّبع الهدى ، ذكرتَ فى كتابك أنّى كنتُ بدويّا أستَطْعِم الكِسْرة ، وأَبْدُرُ إلى التَّمرة ، وبالله لقد قلتَ زورا . . » (١) ، فمن الواضح أن الكاتب يستنكف أن يهدى السلام صراحة إلى المكتوب له . بل إنه يَجْزِءُ فى عقيدته حين يستعمل معه من صيغ السلام ما كان يستعمل فى مخاطبة أهل الكفر : « سلام على من اتبع الهدى » ، تلك الصيغة التى كادت تندثر من تقاليد الرسالة بعامة .

وقد تسقط معظم عناصر المقدمة ، وبخاصة ما يدلُّ منها على توقير المخاطَب ، فلا يبقى ثمة من هذه العناصر سوى الافتتاح بصيغة « أما بعد » مباشرة ودون تمهيد ، « ومنها – كما يقول القلقشندى – يقع الشروع فى المقصد » ، على نحو ما كتب يزيد بن معاوية إلى أهل المدينة ، وقد بلغه خلافهم عليه :

« أما بعد ، فإنَّ الله لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . وإذا أراد اللهُ بقوم سوءًا فلا مردّ له ، وما لهم من دونه من وال (٢) . إنّى والله قد لَبِستُكُمْ فأَخْلَقْتُكم ، ورفعتُكُمْ على رأسى ، ثم على عينى ، ثم على فمى ، ثم على بطنى ، وايْمُ الله لَئِن وضعتُكُمْ تحت قدمى لأَطَأَنَّكُمْ وطأةً أُقِلُّ بها عددكم ، وأَتْرُكُكم بها أحاديث تُنْسَخُ

(١) انظر رسالة الحجاج ورد قطرى عليها فى :
أبو العباس المبرد : الكامل – جـ ١ – هامش صفحتى ٣٧٨ ، ٣٧٩ .
(٢) هذا الجزء مقتبس من الآية رقم ١١ من سورة الرعد

منها أخبارُكم كأخبار عاد وثَمُود . . » (١) ، فترى أن يزيد قد بتر رسالته حين أهمل البسملة ، ثم أضاف إلى ذلك إسقاط السلام والتحميد ، وتجاهل حتى التعريف بنفسه أو بالمرسل إليهم ، إيماءً إلى الاستهانة بهم ، ولم يَسْتَبْقِ من تقاليد الهيكل الكتابي سوى « أما بعد » ، ولهذه الصيغة بدوْرها قصة ، إذ ظلت تستخدم عن سعة فى رسائل هذا العصر حتى لحظ ابنُ القِرِّيَّة عدم عضويتها فى البناء الكتابى أحيانا . ولم يتحرج من إبداء ملحوظته تلك أمام الحجّاج حين سأله ذلك الأخير عما ينكره عليه ، فقال له : إنّك تُكْثِر الرّد ، وتُشير باليد ، وتستعين بأمّا بعد » (٢) ، وربما كان لهذه الملحوظة أثرها فى التخفّف قليلا من الاتّكاء على هذه الصيغة ، دون أن تفقد - مع ذلك - دوْرها التقليدى فى بنية الرسالة .

وللعنصر الثانى (ب) من العناصر المشار إليها أهمية خاصة ؛ إذ كان لوضع المرسِل والمرسَل إليه فى صدر الرسالة مظنّة ارتباط بالوضع الرسمي والمكانة الاجتماعية لكل منهما ، ومع ذلك فإن من يتعقب البدايات الإسلامية للنثر الكتابى يجد أن النبي (ص) ، وخلفاءه الراشدين من بعده ، كانوا يجْرون فى كتبهم على ذكر اسم المرسِل أوّلا ، ثم المرسَل إليه ثانيا ، كائنا من كان المرسل والمرسل إليه ، وبغضّ النظر عن الدرجة أو المكانة ، وقد رُوِي عن العلاء بن الحَضْرمى أنه كتب إلى النبي (ص) فبدأ بنفسه ، كما

(١) صبح الأعشى : ج ٦ - ص ٣٩٠ - ٣٩١ .

(٢) أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكرى : كتاب الصناعتين - الطبعة الأولى - الآستانة سنة ١٣٢٠ هـ - ص ١١٩ .

روى عن الربيع بن أنس قوله : « ما كان أحد أعظم حرمة من رسول الله (ص) ، وكان أصحابه يكتبون إليه يبدءون بأنفسهم » (١) ، وبالمثل كان هؤلاء الصحابة يتبعون فيما بينهم هذه الطريقة ، فقد كان ابن عمر إذا كتب إلى أبيه كتب : « من عبد الله بن عمر إلى عمر بن الخطاب » (٢) .

وعلى ذلك جرت العادة فى كثرة ما كان يكتب لتلك الفترة ، واستمرت حتى نهاية عهد الراشدين . ثم امتدت لتستغرق ردحاً طويلاً من ولاية الأمويين . إلى أن آل الأمر إلى «الوليد بن عبد الملك . « فجود القراطيس — بتعبير صبح الأعشى — وجلّل الخطوط ، وفخم المكاتبات . وتبعه من بعده الخلفاء على ذلك ، إلاّ عمر بن عبد العزيز ويزيد ابن الوليد ، فإنهما جريا فى ذلك على طريقة السلف : ثم مضى الأمر بعدهما على ما سنّه الوليد بن عبد الملك (٣) » ، وكأنما استكثر الوليد على الآخرين ممن يكتبون إليه أن يتقدموا بأسمائهم على اسمه ، فاختط هذا النهج الذى يقضى بتقديم اسمه على أسمائهم ؛ إعظاماً له ، ومراعاة لمظاهر الملك التى أصبحت تحيط بمنصب الخلافة ؛ وعلى الرغم من أن عمر بن عبد العزيز قد استهجن هذا المعنى الملكى — نوشك أن نقول : الأعجمى (٤) — فى نهج الوليد ، فعدل عنه إلى

(١) انظر :
القلقشندى : صبح الأعشى — ٦ — ٣٢٩ .
ابن عبد ربه : العقد الفريد — نشرة الكتبى — جـ ٣ — ص ٤ .
(٢) انظر المصدرين السابقين — الصفحات نفسها .
(٣) صبح الأعشى — جـ ٦ — ص ٣٩١ .
(٤) فى المصدر السابق — جـ ٦ — ص ٣٢٩ « أن العجم كانوا يبدءون بملوكهم إذا كتبوا إليهم » .

الطريقة السلفية ، فإن من خلفوه - باستثناء يزيد بن الوليد - قد عادوا إلى ما سبق أن استنّه الوليد ، وكأنما عزّ عليهم التسوية بين الخليفة وسائر الرعية ، فأبَوا إلاّ أن يتقدم اسمه فى كل الأحوال(١)

وقد فهم بعض الباحثين من الطريقة التى اتبعت فى الابتداء بالمرسِل أثناء فترة صدر الإسلام وشطر من عصر بنى أمية، أن ذلك « كان نظاماً متّبعاً » (٢) على إطلاقه حتى خلافة الوليد ، والذى نفهمه أن للمسألة وجهاً آخر ، وأنه كان يحدث أحياناً أن يحرص الكاتب على مزيد من مجاملة صاحبه وإظهار الودّ تجاهه، ومن ثم يقدمه على نفسه ، متخطياً بذلك ما جرت به العادة ، وقد ذكر لنا صاحب « صبح الأعشى » أن بعض الملوك، كالنجاشي والمقوقس، وبعض الصحابة كخالد بن الوليد ، كتبوا إلى الرسول (ص) فابتدءوا بالمكتوب إليه دون الكاتب، كما ذكر قصة ابن عمر، وكانت له إلى معاوية حاجة، فكتب إليه مقدماً إياه على نفسه ، وكأنما يتوسل بذلك إلى تحقيق بغيته (٣) ، وقد تكرّر هذا الصنيع مرة أخرى من عبد الله بن عمر ، وإن يكن فى فترة متأخرة ، وفى ظروف وملابسات مختلفة ، فعندما يكتب إلى عبد الملك بن مروان ، مبايعاً إياه بعد مقتل ابن الزبير وقيام الحجاج على ولاية الحجاز ، نقرأ له فيما يكتب : « أما بعد ،

---

(١) كان مبدأ المخالفة فى هذا التقليد الجديد واردا منذ أن استخدمه الوليد ، فقد كان أهم البواعث التى حركته إليه رغبته فى إفراد الخليفة بما لا تحظى به العامة ، وقد قال فى تفسير ذلك : « تكون كتبى والكتب إلى خلاف كتب الناس بعضهم إلى بعض ». انظر : الوزراء والكتاب - ص ٤٧ .

(٢) انظر : أدب السياسة - ص ٤٣٢ .

(٣) صبح الأعشى - ٦ - ٣٢٩ .

لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين من عبد الله بن عمر . سلام عليك ، فإنّي أحمد إليك الله الذى لا إله إلاّ هو ، وأمْرى السمع والطاعة على كتاب الله وسنّة نبيه فيما استطعت . . » (١) .

فبالإضافة إلى الاستهلال بصيغة « أما بعد » مباشرة ، وهو استهلال لا يخلو من غرابة ، نرى ابن عمر يقدم عبد الملك على نفسه ، متخطّياً بذلك ما كان يُظن قاعدة فى الترتيب ، والحال أنه لم يكن قاعدة ضرورية الاتّباع ، بل كان — على أحسن الفروض — شبه عرف ، وقد يقتضى الأمر تجاوزه ، وقد تؤدى إلى إهماله مناسبات بعض الكتب إذا نظر إلى كل منها فى ضوء كل واقعة على حدة ، وليس ابن عمر هو الاستثناء الوحيد فى هذا المقام ، فقد وجدنا بعض زعماء الشيعة يراساون الحسين بن على فيقدمونه فى كل الأحوال ، (٢) وعلى نفس الدرب سار بعض أقطاب الحزب الأموى فيما كانوا يكتبون إلى خلفائهم ، وقد كتب مسلم بن عقبة إلى أميره يزيد بن معاوية بعد موقعة الحرة (٣) ، فلم يكد صنيعه يتجاوز نفس الإطار ، من البدء بالمكتوب إليه .

ومن عنصر التحميد (هـ) فى تلك البنية النموذجية يولد ضرب

---

(١) المصدر السابق — حـ ٦ — ٤٨٠ .

(٢) من ذلك رسالة سليمان بن صرد وآخرين إلى الحسين ، وفى تقديمهم إياه إيحاء بالأفضلية المذهبية . انظر :

الإمامة والسياسة — حـ ٢ — ص ٤ .

تاريخ الطبرى — حـ ٥ — ص ٣٥٢ .

(٣) الإمامة والسياسة — حـ ١ — ص ١٩٨ — ٢٠٠ .

من الكتب يعتمد على التحميد المحض ، وهو ضرب يبدو وكأنه « مختلَس » من التحميد الافتتاحي ، ولكنه يكاد يكون خالصاً لتلك الغاية منذ بداية الكتاب وحتى نهايته ، وأكثر ما يكون ذلك فيما يقتضي الحمد وشكر النعمة من نصر أو فتح أو نحوهما ، ويبدو أن هذا التطور قد اقترن بنمو الصنعة الكتابية فى أخريات العصر الأموى ، وعلى قلم عبد الحميد بن يحيى بخاصة ، « فقد أطال التحميدات فى صدور الكتب ، وتبعه الكتاب على ذلك (١) » ، ولعل هذه الإطالة كانت أولى الخطوات على درب الكتب التى تتمحض للتحميد الخالص .

وما دام الحديث قد تطرق بنا إلى عبد الحميد بن يحيى وأثره فى بنية الرسالة ، فإن من الإنصاف أن نفصّل القول فى هذا الأثر بعض التفصيل ، دون أن نصادر – مع ذلك – على حق البحث فى العودة إلى الفن الكتابى لدى عبد الحميد ، كلما اقتضى الأمر ذلك .

منطقيــة البنيــة :

والحق أنك من رسائل عبد الحميد بإزاء نثر إبداعى مكتمل النهج والأداة ، ويتميز – فى المقام الأول – بمنطقيّة البنية ، بما يعنى التخطيط لمعمار الرسالة وهى ما زالت بعد مشروعاً ، ثم التدرج الهادئ فى تنفيذ هذا المشروع ، من المقدمة إلى نتيجتها ، ومن الفكرة إلى الفكرة ، حتى يستغرق – أو يكاد – زوايا الموضوع فيما يشبه

---

(١) صبح الأعشى – ج ٦ – ٣٣٢ .

الاستقصاء ، هذا بالإضافة إلى بعض السمات الجمالية التى تقترب بفنِّه من المواضعات المُثلى للنثر الأدبى ، كسخاء الطابع الإيقاعى والصوتى الذى يتحقق بفضل الدقة فى انتقاء وحدات المعجم الأدبى ، وكمجازية التعبير،وكثرة الاتّكاء على الصور الأدبية(١) .

وليس عبد الحميد مجرد ناثر مارس تـأثيره على الناثرين من بعده ، ولكنه ــ فوق ذلك ــ يعتبر المنظِّر الأوّل لأدبيات النثر العربى ، حين وضع بعض قواعد الكتابة الفنية فى رسالته الشهيرة إلى الكتّاب ، وعلى الرغم من الصبغة الخُلُقية لبعض هذه القواعد ، كحثّه الكتّاب على التواضع ، والتعاون ، والوفاء ، والرفق بالضعيف ، وإنصاف المظلوم ، والقصد فى الملْبس والمطعم والمشرب ، فإنها لم تَخْل عند الإمعان من بعض النظرات الفنية الناقدة ، كالحديث عن مكانة الكتابة وأهمية الكتّاب ، وكالحديث عن ثقافة الكاتب ، وما ينبغى أن تتحلّى به هذه الثقافة من تنوّع وشمول . لنقرأ مما كتبه :

« . . . بكُم (يا معشر الكتّاب) ينتظم المُلْك ، وتستقيمُ للملوك أمورهم ، وبتدبيركم وسياستكم يُصْلح اللهُ سلطانهم ، وتَعْمُر بلادُهم . يحتاج إليكم الملِك فى عظيم مُلكه ، والوالى فى القدْر السّنِىِّ والدنِىِّ من ولايته ، لا يستَغْنِى عنكم منهم أحد ، ولا يُوجَد كاف إلاّ منكم ، فموْقِعُكُمْ منهم موقع أسماعهم التى بها

---

(١) انظــر :

Filshtinsky, J. M., Arabic Classical Literature, Moscow, 1965, P. 109—110

يَسْمَعون ، وأبصارهم التى بها يبصرون ، وألسنتهم التى بها يَنطِقُون ، وأيديهم التى بها يبطشون . أنتم إذا آلت الأمور إلى موئلها ، وصارت إلى مَحَاصِلها ، ثِقَاتُهم دون أهْلِيهم وأولادهم وقَرَاباتهم ونُصَحائهم ، فأمْتَعَكُم الله بما خَصّكم من فَضْل صناعتكم ، ولا نَزَع عنكم سِرْبال النعمة عليكم .

وليس أحد من أهل الصناعات كلِّها أحْوج إلى استِخْراج خِلال الخير المحمودة ، وخصال الفضل المذكورة المعدودة ، منكم أيها الكتّاب ، إن كنتم على ما يأتى به الكِتاب من صفتكم ، فإن الكاتب يحتاج من نفْسه ، ويحتاج منه صاحبه الذى يثق به فى مهمّات أموره ، إلى أن يكون حليماً فى موضع الحلم ، فقيها فى موضع الحكم ، مِقْدَاماً فى موضع الإقدام ، ومُحجِمًا فى موضع الإحْجام ، ليِّنًا فى موضع اللين ، شديدا فى موضع الشدّة ، مؤْثِرا للعفاف ، والعدل والإنصاف ، كَتُوما للأسرار ، وفيا عند الشدائد ، عالماً بما يأتى وَيذَر ، ويضَع الأمور فى مواضعها ، قد نَظَر فى كل صِنْف من صُنوف العلم فأحْكمه ، فإن لم يحْكِمْه شَدَا منه شَدْوا يكتَفِى به ، يكاد يعرف بغريزة عقله ، وحُسْن أدبه ، وفضْل تجربته ، ما يَرِد عليه قبل وروده ، وعاقبةَ ما يصْدر عنه قبل صُدوره ، فيُعِدّ لكل أمر عُدَّته ، ويهيِّئ لكل أمر أهْبته . . »

---

(١) انظر نص الرسالة كاملا فى :
أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشيارى : الوزراء والكتاب – تحقيق مصطفى السقا وآخرين – القاهرة سنة ١٩٣٨ – ص ٧٤ وما تلاها .

فهذا التدرّج الواضح من أهمية الكاتب وبيان حاجته إلى اجتماع خصال الفضل ، إلى البرهنة على هذه الحاجة بما يقتضيه صاحب الأمر فى كاتبه من صفات تتفاوت بين الإقدام والإحجام ، وتجمع بين العدل والإنصاف ، إلى ضرورة التطابق بين تنوع هذه الصفات وتنوُّع معارف الكتّاب ، بحيث تجد كل حالة أو صفة ما يغذيها من ثقافة الكاتب — نقول : هذا ما عنيْناه حين أشرنا إلى البنية المنطقية فى رسائل عبد الحميد ، وهى البنية التى لا نشكُّ فى صلتها بروح الفترة ، كما لا نشك فى تعبيرها عن ذلك اللقاح الثقافى والعقلى الوافد ، والذى بدأ يغمر المناخ الكتابى على مفرق العصرين ، الأموى والعباسى .

أمّا أنّ لهذه البنية صلة بروح الفترة ؛ فلأنّها تستجيب المزاج الحضَرى الجديد ، ذلك المزاج الشغوف بتفتيق الفكرة والامتداد بها ، المراوِغ فى استقطاب أطراف الدلالة وترويضها ، المولع بالإسهاب إلى حدّ قد يجعل من الرسالة مقالا ذا حجم معقول ، أو أطروحة مكتنزة ، أو كتيباً صغيراً ، تماماً مثلما ألفيْنا رسالة عبد الحميد الآنفة وقد ناهزت المائة من الأسطر ، أمّا رسالتاه المشار إليهما فيما سلف عن « الشطرنج » و « الصيد » فقد قاربتْ كل منهما الخمسين سطراً ، وبلغ الطول مداه فى رسالته على لسان مروان بن محمد إلى ابنه عبد الله . حين وجّهه لمحاربة الضحّاك بن قيس الشيبانى الخارجى ، إذ نيّفت هذه الرسالة على خمسمائة سطر .

بين القصـد والإطالـة :

والحق أن بدايات الرسالة العربية لم تعرف مثل هذا الطول الذى لمحناه فى نثر عبد الحميد بن يحيي ، بل كانت أكثر ميلا إلى القصد

والإيجاز ، وأشد عزوفاً عن الإفاضة والإطناب ، وكأنّما كان همّ كاتبيها إيصال الدلالة من أقرب طريق ، فحيث أجزأت الكلمة لم تترادف الكلمات ، وحيث أغنت السطور لم تعدُ حاجة إلى الصفحات ، وقد نقل لنا الطبرى خبر عبد الله بن عمر ، حين كتب إلى يزيد ابن معاوية فى شأن إطلاق سراح صهره المختار بن أبى عبيد الثقفى ، فأوْجَز كتابه فيما يقارب السطرين : « أما بعد ، فإن عُبَيْد الله بن زياد حبس المختار ، وهو صهرى ، وأنا أحب أن يُعَافَى ويُصْلَح من حاله ، فإن رأيْتَ - رحمنا الله وإيّاك - أن تكتب إلى ابن زياد فتأمره بتخليته فعلت ، والسلام » (١) ، فكان كتاب يزيد إلى عبيد الله بن زياد ، عامله على العراق ، أشد إيجازًا ، حين كتب : « أمّا بعد ، فخلّ سبيل المختار بن أبى عبيد حين تنظر فى كتابى ، والسلام (٢) » . هكذا ، ودون فُضول ، بل أداء قاصد ، وكلمات دالة ، وقليل من الجمل يفى بالحاجة ، ولا مزيد .

ولم يكن الإيجاز سمة البواكير الأموية فحسب ، بل الظاهر أنه كان ملمحًا مطّرداً فى نتاج القرن الأوّل ، وأنّ مثل ذلك الإسراف فى الإطالة ، الذى لمسناه فى رسائل عبد الحميد بن يحيى ، لم يعرف على امتداد تلك الفترة ، فى الأعم الأغلب ، وآية ذلك أننا نرى الحجاج فى السبعينيات (سنة ٧٥ هـ على وجه التحديد) يكتب إلى المهلّب بن أبى صُفرة فى مناهضة الخوارج، فلا يزيد على قوله: إذا أتاكم كتابى

(١) تاريخ الطبرى جـ ٥ - ص ٥٧١ .

(٢) المصدر السابق .

هذا فناهضوا الخوارج ، والسلام (١) » ، كما نرى المهلب يخاطب أميره فى شأنهم فيبعث إليه : إنّى مُنْتَظِر بهم إحدى ثلاث ، موت ذريع ، أو جُوع مُضِرّ ، أو اختلاف من أهوائهم (٢) » ، وعلى نحو هذا النمط من الإيجاز يروى صاحب « البيان » بعض رسائل الحجاج إلى قُتيبة بن مسلم (٣) ، كما يورد صاحب « العقد » بعض كتب عمر ابن عبد العزيز (٤) ، الأمر الذى يقطع بأن هذا الشكل الكتابى الموجز ظلّ مألوفاً طيلة المائة الأولى من عمر النثر الإسلامى .

أمّا العودة بظاهرة الإطالة إلى عهد عبيد الله بن زياد ، والى العراق (٦٠ - ٦٤ هـ) ، اعتمادا على ما ذكره الطبرى من أن كاتبه عمرو ابن نافع « كان أوّل من أطال الكتب » (٥) ، فهى مقولة تحتاج إلى بعض التقييد ، كما أنها لا تخلو من ترخص ، فلم تذكر لنا أمهات التراث ما كتبه عمرو بن نافع هذا ولا شيئاً منه ، بل إن ابن جرير الطبرى الذى وردت لديه هذه الإشارة لم يتركها على إطلاقها ، وإنما أضاف إليها أن عبيد الله بن زياد أنكر على كاتبه هذه الإطالة حين حاولها ، وقال له مستهجناً : ما هذا التطويل ، وهذه الفضول !! » ، ثم أملى عليه الرسالة بنفسه (٦) . فإذا كان عمرو بن نافع قد مَالَ

---

(١) المصدر السابق - جـ ٦ - ص ٢١١ .

(٢) المبرد - الكامل - جـ ٣ - ص ٣٧٤ .

(٣) انظر : البيان والتبيين (تحقيق هارون) جـ ١ - ص ٣٨٧ .

(٤) العقد الفريد (نشرة الكتبى) - جـ ٣ - ص ١٧١ .

(٥) تاريخ الطبرى - جـ ٥ - ص ٣٨٠ ، وعليه عول فى نحو من هذا الرأى الأستاذ الدكتور شوقى ضيف فى كتابه : الفن ومذاهبه فى النثر العربى - ص ١٠٦ .

(٦) انظر الطبرى - جـ ٥ - ص ٣٨٠ .

إلى الإطناب فقد أنكره عليه أميره ، ويعني هذا أن الإطالة لم تكن ظاهرة عامة القبول فى هذه الآونة .

وعلى فرض التسليم برجوع هذه الإطالة إلى ولاية عبيد الله بن زياد ، فإنها لم تكن حينئذ بنفس القدر أو الحجم الذى ستشهده أخريات العصر الأموى ، كما أنها – على وجه القطع – لم تكن قاعدة مطردة ، أو تقليدًا متّبعاً ، وغاية ما يصلنا من نماذجها يماثل ما رواه الطبرى من رسالة سليمان بن صُرَد زعيم الشيعة بالكوفة ، حين كتب سنة ٦٤ هـ إلى سعد بن حذيفة بن اليمان بالمدائن يدعوه إلى الانتقام لمقتل الحسين ، فوقع كتابه فيما يقرب من خمسة وثلاثين سطراً (١) ، وهو قدر متوسط الطول ، ثم هو حجم لم يمثل ظاهرة عامة فى تلك الفترة ، بل كان بجواره ومعه فيض من تلك الكتب التى أوردْنا بعضها فيما سلف ، والتى تتميز باكتناز البنْية ، وقبضْ العبارة ، والعزوف عن الاسترسال .

وقد أعان على هذا الاكتناز أن بعض أولى الأمر لم يكونوا يرون فى الإسهاب مجرد إسراف كلامى يفضى إلى المبالغة ، بل كانوا ينظرون إليه – من وجه آخر – باعتباره إهداراً لأدوات الكتابة فيما يجزئ فيه الإيجاز ، وقد كان يكتب لخليفة مثل عمر بن عبد العزيز كتّاب مشهورون ، كالليث بن أبى رُقَيّة ، ورجاء بن حَيْوة ، وإسماعيل بن أبى حكيم ، وأبى بكر بن حزم ، فكان يوصيهم جميعاً

---

(١) انظر تاريخ الطبرى – جـ ٥ – طبعة دار المعارف – ص ٥٥٥ – ٥٥٦

« بجمع الخط » ؛ كراهية الإسراف فى استعمال الصحف ، وكتب إلى أبى بكر بن حزم حين أرسل يطلب منه قراطيس : « أنْ دَقِّق قلمك، وأقْلل كلامك ، تكْتَفِ بما عندك من القراطيس » . (١)

ويبدو أن التطويل لم يصبح ظاهرة كتابية فاشية إلاَّ مع أوائل القرن الهجرى الثانى ، وفى ولاية هشام بن عبد الملك على وجه التخصيص ، حين ازدادت جرعة الحضارة ، وتعقدت أمشاج المعرفة العلمية وغير العلمية ، وانتعش النشاط العقلى ؛ فاحتاج الناس فى التعبير عن أنفسهم إلى غير قليل من البسط ، وغير قليل من الإفاضة ، كما يبدو أن فُشُوَّ هذه الظاهرة قد اقترن بنموِّ الصلات الثقافية بين العرب وغيرهم ، واتِّساع رقعة الاحتكاك بين الأوَّلين وروافد الثقافتين اليونانية والفارسية بخاصة ، وآية ذلك ما يذكره الدكتور طه حسين من دلائل اتصال عبد الحميد ابن يحيى بالثقافة اليونانية ، واستشهاده على وجود هذا الاتصال بإسراف ذلك الكاتب فى استعمال صيغ الحال ، واعتماده عليها فى توضيح فكرته وتحديدها وتقييدها ، وتجميل الكلام ، وإظهار الموسيقى ، « واستعمال الحال على هذا النحو ـ حسب تعبير الدكتور طه حسين ـ هو من خصائص اللغة اليونانية ، ومن الأسباب التى يعتمد عليها اليونان فى تحديد معانيهم » (٢) .

---

(١) الوزراء والكتاب — ص ٥٣ .

(٢) د . طه حسين : من حديث الشعر والنثر — المجلد الخامس من المجموعة الكاملة — مرجع سابق — ص ٤٩٦ .

فإذا سلمنا بأن هذه الظاهرة الصياغية يمكن أن تكون دليلا على تأثير وافد ، وإذا رجعنا مع تيار الزمن إلى الوراء قليلا ، وإلى خلافة هشام بن عبد الملك على وجه التحديد ، وجدنا عبد الله بن سالم يكتب لهشام بن عبد الملك رسالة إلى خالد بن عبد الله القسرى ، واليه على العراق ، فيسرف فى الطول ، ويستقصى أو يكاد ، حتى ليناهز بها السبعين سطرا ، وهو حجم لم يكد مثله يعرف من قبل ، فإذا علمنا أن عبد الله هذا هو ولد سالم أبى العلاء ، كاتب هشام ، وأن سالما بدوره كان أحد فصحاء عصره ، وأنه كان يعرف اليونانية معرفة أتاحت له أن يترجم منها بعض رسائل أرسطو إلى الإسكندر(١) ، أدركنا سر ذلك النفس الفنى الجديد فيما كتبه عبد الله بن سالم ، والذى انحدر إليه - فيما نخال - عبر والده وعن طريقه ، وأدركنا - أيضا - بعض عوامل تلك الإطالة التى خرجت على المألوف فى أحجام الكتب العربية .

وربما كان جديرا بالذكر أن المبرد قد احتفظ لنا بنص الرسالة المشار إليها كاملا ، وهى إن لفتت النظر بإسهابها ، فقد لفتته - كذلك - بتلك الظاهرة التعبيرية التى تتجلى فى كثرة الاتكاء على الحال واستعمالاته ، وهى الظاهرة التى تتخذ فى العادة قرينة على تأثير يونانى محتمل ، وخشية الإملال سنجتزئ من هذه الرسالة المطولة بما يرشد إلى تلك الظاهرة وتجلياتها :

---

(١) انظر : ابن النديم - الفهرست - مرجع سابق - ص ١٧١ .

« إنَّ النعمة إذا طالت بالعبد ممتدة أبْطَرَتْه ، فأساء حمل الكرامة ، واستقلَّ العافية ، ونسب ما فى يديه إلى حيلته وحسبه وبيته ورهطه وعشيرته ، فإذا نزلتْ به الغِيَرَ ، وانكَشَطتْ عنه عَمَاية الغيّ والسلطان، ذَلَّ مُنْقادا ، وتندم حسيرا ، وتمكَّن منه عدوُّه قادرا عليه ، قاهرا له ، ولو أراد أميرُ المؤمنين إفْسادك لجمع بينك وبين من شهد فَلتاتِ خَطلِك ، وعظيم زَلَلك . . . ولكنَّه يظن أن الله طَالِبُك بأُمور أتيتَها ، غير تارك لتكْشيفك عنها ، وحَمْلِك الأموال ناقصة عن وظائفها التى جَبَاها عمر بن أبى هُبَيْرة ، وتوْجيهك أخاك أَسَدًا إلى خراسان ، مُظهرا العصبية بها ، مُتَحامِلا على هذا الحىِّ من مَضر . . » (١)

فمن الجلىِّ أن أسلوب الرسالة يتضمن نبضا لا عهد به من قبل ، كالترادف ، وصيغ الحال التى لا تحتاج فى إثبات كثرتها إلى برهان ، والتى تنهض — فوق وظيفتها فى تحديد المعانى وتقييد الأفكار — ببعض الغايات الإيقاعية ، سواء فى حشو الجمل أو فواصلها .

النقض النثرى :

وثمة ظاهرة أخرى تلحظ فى بنية الرسالة السياسية والمذهبية بخاصة ، وهى الالتجاء من النثر الكتابى إلى ما يشبه النقض

---

(١) المبرد — الكامل — جـ ٤ — ص ١٢٠ — ١٢٥ ، والإشارة إلى أسد بن عبد الله ، حين ولاه أخوه على خراسان ، فتعصب حتى أفسد الناس ، وضرب نفراً من المضريين بالسياط .

الشعرى ، فمن يبدأ الحوار يطرح دعوى أو مجموعة من الدعاوى ، ثم يقوم المجيب بنقضها كلها فى ردّه ، على حين يطرح طائفة أخرى من الدعاوى المقابلة ، وفى هذه الحالة يبدو الأمر كما لو كان المجيب يتعقب البادىء ليهدم معانيه وأفكاره وحججه ، حتى لا يكاد يسلم للأول شىء .

وتُنقض الحجة ، إمّا بقياس مضاد لذلك الذى احتجّ به البادىء ، أو بإيراد اعتراض على ما أثبته (١) ، وقد استخدمت الطريقة الأولى بنجاح فى بعض المُحَاجّات المذهبية ، ومن بينها تلك التى دارت بين نافع بن الأزرق وعبد الله بن الزبير ، وفيها يتسج الأول بعض الأقيسة التى تتفق نتائجها فى إلزام الخصم — ابن الزبير — بالحجة ، على تنوّع الفروض ، وتعدد الاحتمالات : « إن يكن علىٌّ فى وقت معصيتكم ومحاربتكم له كان مؤمنا ، أمّا لقد كفرتم بقتال المؤمنين وأئمة العدل ، ولئن كان كافرًا كما زعمتم ، وفى الحكم جائرا ، لقد بُؤتم بغضب من الله لفراركم من الزحف . ولقد كنتَ له عدوًّا ، ولسيرته عـيبا ، فكيف تولّيته بعد موته » . (٢)

فموضوع النقض هو موقف عبدالله بن الزبير من علىّ وشيعته ، فقد جافاه حيا ، وتولاه ميتا ، ويتم تفنيد هذا الموقف عن طريق بعض الأقيسة التى تستغرق الاحتمالات المتاحة ، لتثبت فى النهاية خطأً ابن الزبير وصواب ما يراه نافع ومن يلوذ به من الخوارج .

---

(١) انظر فى طرق النقض :
أرسطو : الخطابة — ترجمة د . عبد الرحمن بدوى — بغداد سنة ١٩٨٠ — ص ١٨٧ .
(٢) أبو العباس المبرد — الكامل — جـ ٣ — ص ٢٩٠ .

وأما النقض عن طريق إيراد الاعتراض على ما ادعاه الخصم، فإننا نصادف كثيرا من نماذجه فى وقائع ما كان بين الحجاج وعماله على الأطراف وأمرائه على الجند ونوابه فى الفتوح ، ويتجلى — بخاصة — فيما دار بينه وبين المهلّب بن أبى صفرة ، فقد كتب الحجاج إلى المهلّب ، والأخير نائب له — حينئذ — على بعض الأعمال والحروب : « أما بعد ، فإنك تتراخى عن الحرب حتى تأتيكَ رُسُلى ويرجعون بعذرك ، وذلك أنك تُمسِك حتى تَبْرأ الجراح ، وتُنْسَى القتلى ، ويَجمّ الناس (١) ، ولوْ كنتَ تَلْقاهُمْ بذلك الجِدِّ لكان الداءُ قد حُسِم ، والقَرْنُ (٢) قد قُصِم ، ولَعَمْرى ما أنت والقوم سواء ، لأن مِنْ ورائك رجالا ، وأمَامَك أموالا ، وليس للقوم إلا ما معهم ، ولا يُدْرَك الوَجيف بالدَّبيب (٣) ، ولا الظَّفَر بالتعذير . . . » (٤)

وقد رد المهلب على كتاب الحجّاج ، فبدأ بإثبات ما يشهد به رسل الحجاج نفسه ، إذ رأوا من جدّ المهلب ما ينقض التراخى المزعوم ، ثم ثنّى بنقضين يتناولان بالتفنيد بعض عبارات الحجاج ، وأحد هذين النقضين يقوم على اختلاف التأويل ، على حين ينهض الآخر على الإنكار الصريح : « أما بعد ، فإنّى لم أُعطِ رُسُلك على

(١) يجم الناس : يستريحون .
(٢) القرن : الجانب الأعلى من الرأس ، يريد بذلك كسر شوكة العدو .
(٣) الوجيف : ضرب من السير السريع ؛ الدبيب : السير الهين .
(٤) التعذير : التقصير . انظر تلك الرسالة فى :
صبح الأعشى — طبعة دار الكتب سنة ١٩١٥ — ح ٦ — ص ٥٥٩ .

قول الحق أجرا ، ولم أَحْتَجْ فيهم مع المشاهدة إلى تلقين . ذكرتَ أنّى أُجِمُّ القوم ، ولا بدّ من راحة يستريح فيها الغالب ويحتال المغلوب . وذكرتَ أنَّ فى الجِمَام تُنْسَى القتلى وتَبْرَأ الجِرَاح ، وهيهاتَ أن يُنْسَى ما بيننا وبينهم ، يأْبَى ذلك قتلٌ مَنْ لم يَجِنْ ، وقُروح لم تُغْرِق(١) ، ونحن والقوم على حالة ، وهم يرقُبون منّا حالات ، إن طمعوا حاربوا ، وإن ملُّوا وقفوا ، ونَطْلُب إذا هربوا ، فإن تَرَكْتَنِى فالدَّاءُ بإِذْن الله محسوم ، وإنْ أَعْجَلْتَنِى لم أُطِعْكَ ولم أَعْصِ ، وجعلتُ وجْهِى إلى بابك . . . » (٢)

فمن الواضح أن صدر الرسالة ينهض على إثبات ضد ما زعمه الحجاج من تخاذل المهلب وجنوده ، والحجة فى هذا هى المشاهدة التى لا تحتاج إلى تلقين ، أما وسط الرسالة فمبناه على نقضين يستخدمان بعض عبارات الحجاج بطريقة معكوسة ، فإذا اتّهمه الحجاج بالاستجمام ، وافقه المهلب فى إثباته ، ثم راح يختلف معه فى تفسيره وتحديد المقصود منه ؛ « فلا بدّ من راحة يستريح فيها الغالب » ، وإذا ادعى الحجاج أن الراحة تُنْسِى القتلى وتبرىء الجراح ، اعترض المهلب على هذه المقولة من أساسها ، فكيف تُنْسى القتلى ودماؤهم لم تجفّ ، وكيف تبرأ الجراح ولم يتقادم بها العهد : « هيهات أن يُنْسَى ما بيننا وبينهم . . » ؛ ومن ثم تتضافر

---

(١) لم تعرق : لم تقدم بعد ، ولم يمض عليها زمن حتى تبرأ .
(٢) المصدر السابق — ص ٥٥٩ .

على النقض خطوات محسوبة بدقة : إثبات عكس المدّعَى به ، وتأويله تأويلا مختلفا ، وردّه والاعتراض عليه من أصله .

وإذا كنا - حتى الآن - من بنية الرسالة بإزاء هيكل تتوالى فيه عناصر تلك البنية توالیا نموذجيا ، فإن ظواهر الصياغة هى التى تكسو نسيج هذا الهيكل ، وتبعث فيه دفق الحياة ، وتنتقل به من مجرد مشروع ذهنى مُفْتَرَض ، إلى واقعة أدبية ماثلة .

الفصل الثانى

ظواهر الصياغة الكتابية

لم يكن طابع القصد والاعتدال فى مطالع الكتابة العربية مقصورا على ما يخص الحجم وحده ، بل كان - كذلك - سمة الظواهر الصياغية ، سواء ما يتعلق من هذه الظواهر بالجانب الموْقعى فى الكتابة ، كاختيار كلمات بعينها لأنها توفر آثارا موسيقية أو صوتية لاتوفرها سواها ، أو ما يتعلق منها بالجانب السياقى ، كالتوازن ، والازدواج ، والتجنيس ، والتكرار ، وجميعها خصائص تعتمد على التماثل أو التجاوب ، الأمر الذى يحتفظ للبنية بسخاء أدائى بالغ الخصوبة والتنوع .

وطابع القصد والاعتدال فى هذه الظواهر الصياغية يعنى أمرين ، أوّلهما عدم الإفراط فى استغلالها بما يؤدى إلى التراكم أو شبهة التراكم ، وثانيهما تلقائية هذا الاستغلال إن وجد ، بمعنى أن لا تجلّل العمل غشاوة التكلف أو رَهَق الافتعال .

والناظر فى الكتب المتبادلة بين الشخصيات الأُولى فى الحقبة موضع الدراسة ، يلحظ أطرافا من هذه التلقائية ، كما يلحظ عزوفا عن الصقل والتأنّق ، فالألفاظ على أقدار المعانى ، والمعانى بدورها عملية ومباشرة ، لا تنمّ عن ترف ذهنى ، بقدر ما تهتمّ

بتحقيق غاية أو فضّ مُشكل أو ردع خصم (١) ، وحتّى تلك الحالات التى ترى فيها بعض الترددات السياقية كالسجع والتجنيس ، أو التوازن والازدواج ، تجدها ترد عفو البديهة ، دون أثر للكدّ أو التحرّى ، كما تجدها سائغة قاصدة لا غلوّ فى استخدامها ولا إسراف ، وقد كتب معاوية - فيما نقله ابن قتيبة - إلى عبد الله ابن جعفر ، طالبا منه البيعة ليزيد ، فكان مما كتبه إليه : « أما بعد ، فقد عرفْت أثرَتِى إيّاك على مَنْ سِوَاك ، وحُسْنَ رأيِى فيكَ وفى أهْل بيْتك ، وقد أتَانِى عنك ما أكْره ، فإنْ بايَعْتَ تُشْكر ، وإن تَأْبَ تُجْبر . . » (٢) ، فتلحظ أن السجع فى الفاصلتين الأخيرتين ، وتوازن الصيغ فيهما : تُشكر ، تُجْبر ، لا أثر فيه للاعتساف أو التكلّف ، وهو نفس ما سنلحظه بعد ذلك بسنوات طوال ، حين يكتب عمرو بن سعيد بن العاص - وكان والى يزيد بن معاوية على مكة - إلى الحسين ، داعيا إيّاه إلى الأمان والطاعة ، فيكون من قوله : « بلغنى أنّك توجّهتَ إلى العراق ، وإنّى أُعيذُكَ بالله من الشّقاق ، فإنّى أخاف عليك فيه الهلاك . . . فإنّ لك عندى الأمان والصلة والبرّ ، وحسن الجوار ، لك الله علىّ بذلك شهيد وكفيل ، ومُراع ووكيل . . . » (٣)

---

(١) انظر نموذجاً لهذا الطابع الفنى فى رسائل الشطر الأول من تلك الحقبة ، فى رسالتين متبادلتين بين الحسن ومعاوية :

ابن أبى الحديد : شرح نهج البلاغة - المجلد الرابع - الطبعة الثانية - بيروت سنة ١٩٥٦ - ص ١٣

(٢) الإمامة والسياسة - جـ ١ - ص ١٦٣ .

(٣) تاريخ الطبرى (طبعة دار المعارف) - جـ ٥ - ص ٣٨٨ -

ومع العفوية الملحوظة فى استخدام السجع والتوازن فى فواصل مثل : العراق — الشقاق ، كفيل — وكيل ، فإننا نلمح هنا تقدم الأسلوب خطوة على درب التأنق والتحبير ، تدلُّ على ذلك نهاية الرسالة بخاصة ، حيث تتعقد متعلقات الخبر (لك ، علىّ ، بذلك) ، ويزيد المعطوف « وكيل » ؛ رعاية للفاصلة المسجوعة ، ولا عجب فى ذلك ؛ لأن عمرو بن سعيد بن العاص يعتبر من أبرز ناثرى تلك الفترة ، كان كذلك منذ خلافة معاوية ، وظل كذلك حتى خلافة عبد الملك بن مروان ، واعتبره سعيد بن المسيب واحدا من أبلغ رجال عصره (١) ، ولعل رسائله من إرهاصات التحبير فى الرسالة العربية . (٢)

ومع تقدم الزمن قليلا تصبح الخطوة المشار إليها خطوتين ، وتزداد جرعة التحبير زيادة نسبية ، وبخاصة على أقلام بعض المتميزين من أمثال الحجاج بن يوسف ، والمهلب بن أبى صفرة ، وولده يزيد ، والحجاج بالذات لم يكن حاكما فقط ، ولا قائدا فحسب ، بل كان ذا بصيرة أدبية راقية ، وكان يتحسس الكلمة كما يتحسس الصائغ الماهر تحفة نفيسة ، بل إنه كان يبعث أحيانا فى طلب من ينتهى إليه خبرهم من بلغاء عصره ، كما حدث حينما أرسل إليه يزيد بن المهلب كتابا يلفت النظر بكثرة ما فيه من غريب اللغة ، فلما قرأه الحجاج قال : ما يزيد بأبى عُذْر هذا

---

(١) البيان والتبيين — ح ١ — ص ٣١٤ .

(٢) هو عمرو بن سعيد بن العاص المعروف بالأشدق ، تولى أمر المدينة لمعاوية ويزيد ، ثم طلب الخلافة وانتقض على عبد الملك بن مروان ، فقتله الأخير سنة ٧٠ هـ .

الكلام ، فقيل له إن معه يحيي بن يَعْمَر ، وهو أديب نحوى فقيه ، كان من فصحاء زمانه ومن أكثرهم علما باللغة (توفى سنة ١٢٩ هـ) ، فأمر الحجاج بأن يُحمل « يحيي » إليه ، فلما أتاه سأله : أين ولدت ؟ قال : بالأهواز ، قال : فأنّى لَكَ هذه الفصاحة ؟ قال : أخذتها عن أبي (١) .

ويبدو أن « الفصاحة » التى أدهشت الحجاج من صاحبه كانت ترادف فى ذهنه « غريب الكلام » ؛ لأن رسالة يحيي بن يعمر التى نقلها الجاحظ تحفل - على قصرها - بهذا الغريب ، كما أن بعض رسائل الحجاج نفسه لا تخلو من مثل هذا الغريب ، وبخاصة تلك التى كان يكتبها فى فراغ من الوقت ، وبَراح من الجهد ، فيتأنّى فى نحتها وصقلها أناة النّحات الماهر ، ويتحرى فى انتقاء وحداتها اللفظية ، حتّى يصل بها إلى مستوى من الإغراب لا نألفه كثيرا فى نثر تلك الفترة ، كرسالته التى سجلها الجاحظ - أيضا - فى وصف المطر ، وعلى الرغم من أنه كتبها إلى عبد الملك بن مروان ، فإنها بمعطياتها التِّقَنية والأدائية تكاد تكون ضربا من الرياضة الكلامية الخالصة ، نعنى تلك التى تستهدف تحبير العبارة من أجل العبارة ، وصقل الأسلوب لذاته ، واقرأ فى هذه الرسالة : (٢)

« . . نخبر أمير المؤمنين أنه لم يُصِبْ أرْضَنَا وابلٌ (٣) منذ

(١) أبو عذر الكلام وعذرته : أول من قاله . انظر :
البيان والتبيين (بتحقيق هارون) - حـ ١ - ص ٣٧٧ .
(٢) أوردها الجاحظ كاملة فى :
البيان والتبيين (تحقيق هارون) - حـ ٤ - ص ٩٩ - ١٠٠ .
(٣) الوابل : المطر الكثير .

كتبتُ أُخبره عن سُقْيا الله إيّانا ، إلّا ما بَلَّ وجه الأرض من الطَّشّ والرَّشّ والرذاذ (١) ، حتى دَقِعَتْ (٢) الأرضُ واقْشَعَرَّتْ (٣) واغبَرّتْ ، وثارت فى نواحيها أعاصيرُ تَذْرو (٤) دُقّاق الأرض من ترابها ، وأمْسَكَ الفلاحون بأيديهم من شدّة الأرض واعْتِزَازها (٥) وامتناعها ، وأرضنا أرض سريع تَغَيُّرها ، وَشِيك (٦) تنكُّرُها ، سَيِّئٌ ظنُّ أهلها عند قُحُوط المطر ، حتى أرسل الله بالقَبُول (٧) يوم الجمعة ، فأثارت زِبْرِجًا (٨) متقَطِّعًا مُتَمَصِّرًا (٩) ، ثم أعْقَبَتْهُ الشَّمَالُ يوم السبت ، فَطَخْطَخَتْ (١٠) عنه جَهَامَه (١١) ، وألَّفت مُتَقَطِّعَه ، وجمّعت منمصّره ، حتى انْتَضَد (١٢) فاستَوى ، وطَمَا وطَحَا (١٣) ، وكان جَوْنًا مُرْثَعِنًّا (١٤) قريبًا رَواعِدُه ، ثم عادَت عَوَائِدُه بوَابلٍ مُنهمِلٍ مُنْسَجل (١٥) ، يَرْدَفُ بعضُه بعضا ، كلّما أَرْدَفَ شُؤْبُوبٌ (١٦) أرْدَفَتْهُ شآبيبُ لشِدّة

---

(١) الطش : المطر القليل ، والرش والرذاذ نحو منه .
(٢) دقعت الأرض : صارت لا نبات بها .
(٣) اقشعرت : انكمشت وتقبضت من المحل .
(٤) تذرو : تحمل .
(٥) الاعتزاز : الامتناع .
(٦) وشيك : سريع .
(٧) القبول : ريح الصبا ، وهى الريح الشرقية .
(٨) زبرج : سحاب رقيق .
(٩) المتمصر : المتقطع .
(١٠) طخطخت : فرقت .
(١١) الجهام : السحاب لا ماء فيه .
(١٢) انتضد : تراكم .
(١٣) طما : امتلأ ، طحا : انبسط .
(١٤) جون : أسود ، مرثعن : مسترسل .
(١٥) منسجل : منصب .
(١٦) شؤبوب : الدفعة من المطر .

وقْعه فى العِرَاص (١) ، وكتبْتُ إلى أمير المؤمنين وهى تُرْمِى بمثل قطع القطن ، قد ملأ اليبَاب (٢) ، وسَدّ الشِّعاب (٣) ، وسَقَى منها كلَّ ساق : فالحمد لله الذى أنْزَلَ غَيْثَه ، ونَشَر رحمته من بعد ما قَنَطُوا ، وهو الولىّ الحميد ، والسلام . »

« وواضح أن هذه الرسالة — كما يقول الدكتور شوقى ضيف — ليست مسجوعة ، ولكنها مع ذلك قد أُحْكمت صنعتُها ، سواء من حيث اختيار ألفاظها ، والذهاب بها مذهب الغريب المقبول ، أو من حيث دقتها فى تصوير الجدب ثم نزول الغيث ، وهو تصوير لا شك قد فكَّر فيه الحجاج طويلا ، قبل أن يحكمه ويضبط التشبيهات والاستعارات التى تمثله . » (٤)

أمّا أنَّ هذه الرسالة ليست مسجوعة ، فأمر لا يدعو إلى الدهشة ، إذ الواقع أن إرهاصات الصنعة فى الفترة الحجاجية وما تلاها حتى نهاية القرن الأول ، لا تتمثل فى الترددات الصوتية كالسجع ولتجنيس وما إليهما ، على الرغم من وجودهما فى غير كثرة ، ولا تتجلى — فقط — فى الولع بالغريب المقبول أو غير المقبول ، وإن كان كلاهما ملحوظا دون غلوّ أو إغراق ، وإنما ينبغى أن تُلتمس — فوق هذا وذاك ، وربما قبل هذا وذاك — فيما يدعى بالتوازن أو الازدواج : الذى يعنى تعادل الفقرات ، بحيث تقابل كل كلمة

---

(١) العراص : جمع عرصة ، وهى الأرض لا بناء فيها .
(٢) اليباب : الخالى .
(٣) الشعاب : جمع شعب ، وهو الطريق .
(٤) الفن ومذاهبه فى النثر العربى — ص ١٠٩ .

فى الجملة ما يعادلها وزنا فى الجملة السابقة أو اللاحقة ، أو - على الأقل - بحيث تقابل فاصلةُ الجملة ما يعادلها وزنا أو صيغة من فواصل الجمل الواقعة فى النسق الكلامى(١) ، وقد كن هذا التوازن من أسبق إرهاصات الصنعة فى الرسالة العربية ، وفيه - وليس فى غيره - ينبغى أن تُلتمس أهم جماليات الكتابة العربية حتى نهاية القرن الأول ، وقد أشار صاحب الصناعتين إلى هذه الأهمية حين قال : « واعلم أن الذى يلزمك فى تأليف الرسائل والخطب هو أن تجعلها مزدوجة فقط . ولا يلزمك فيها السجع ؛ فإن جعلتها مسجوعة كان أحسن ، ما لم يكن فى سجعك استكراه وتنافر وتعقيد .. » (٢) ، فإذا كان هذا هو ما يقوله العسكرى ، وهو من رجال القرن الرابع الهجرى ، فما بالك بالقرن الأول ، حيث العناية بالسجع أقل ، وحيث يمثل هذا الازدواج - أو التوازن - أبرز مقدمات الصنعة الكتابية .

ولم تكن هذه المقدمات من شأن الحجاج وحده، فهذا هو معاصره أيوب بن القِرِّيَّة التميمى يكتب إليه على لسان عبد الرحمن بن الأشعث ، حين أجمع على خلع طاعة الحجاج ، فإذا به لا يتحرى من مظاهر التجميل الكلامى إلا ما يقع إليه دون رهق ، ثم لا يلم من هذه المظاهر إلا بقليل من السجع ، وشىء من توازن الصيغ وازدواج أبنية الكلمات : « أما بعد ، فإنى أحمد الله حمدا بالغاق

(١) انظر : تطور الأساليب النثرية - ص ١٣٨ - ١٣٩ .
(٢) أبو هلال العسكرى : كتاب الصناعتين (طبعة الآستانة) - ص ١١٩ .

رضاه : مُنْتهيا إلى الحق فى الأُمور الحقيقة (١) لله علينا . وبعد ، فإنَّ الله أنْهضَنِى لمُصَاوَلَتِك (٢) ، وبَعَثَنِى لمُنَاضَلَتِك ، حين بَحِرَتْ (٣) أمورك ، وتَهَتَّكَتْ سُتُورُك (٤) ، فأصبحْتَ عُرْيانَ حَيْرَانَ مَهِينًا ، لا تُوافِقُ وَفْقًا ، ولا تُرافِقُ رِفْقًا ، ولا تُلازم صِدْقا ، أُؤَمِّل من الله الذى أَلْهَمَنِى ذلك أن يُصيِّرك فى حِبَالِك ، وأن يجىءَ بك فى الْقَرَن (٥) ، ويَسْحَبَكَ للذَّقْن ، ويُنْصِفَ منك مَن لم تُنْصِفه من نفْسك ، ويكونَ هلاكُكَ بيَدَىْ من اتَّهَمْتَه وعَادَيْتَه ، فَلَعَمْرى لقَدْ طَالَمَا تَطَاوَلْتَ ، وتَمَكَّنتَ وأَخطأْت ، وخِلْتَ أنْ لن تَبُور (٦) ، وأنت فى فَلَك المُلك تَدُور ، وأَظنُّ مصداق ما أقول سَتَخْبُرُهُ عمّا قريب . . . » (٧) .

ولا تخفى بواكير التحرّى والمعاناة فى هذا الشطر من الرسالة ، على الرغم من الاجتزاء به ، وفيه من توازى الفواصل ، واتّساق صيغها ، وسجع خواتيمها ، ما يشير إلى أن كاتبها ـ ابن القِرِّيّة ـ كان كاتبا شبه محترف ، كما أن طريقته فى انتقاء الكلمات ، وتوخيه الممتنع منها ، وأخذه بأطراف من الصور الأدبية البسيطة : « بَحِرَتْ أمورك، وتهتكتْ ستورك ، فأصبحت عريان حيران ، لا توافق وَفْقا . ولا ترافق رفقا ، ولا تُلازم صدقا . . . يجىء بك

(١) الحقيقة : الواجبة .
(٢) المصاولة : المغالبة والمنافسة .
(٣) بحر : تحير .
(٤) فى الأصل : صورتك ، ولا يناسب المقام .
(٥) القرن : الحبل .
(٦) تبور : تهلك .
(٧) الإمامة والسياسة (مصدر سابق) ـ حـ ٢ ـ ص ٣٥ .

فى القَرَن ، ويسحبَك للذَّقَن . . » ؛ كل ذلك ينبى بأن الرجل كان ذا بصيرة أدبية متميزة .

ويمثل عهد هشام بن عبد الملك معلما بارزا على درب الصنعة الكتابية ، مثلما كان هذا العهد معلما فيما يخص طول الرسالة ورحابة نسيجها ، وهذا أمر طبيعى ؛ لأن حجم الرسالة يتعلق تعلقا وثيقا بمستوى التقنية النثرية ، وكلما ازدادت جرعة الصنعة ، ازداد طول الرسالة ، وتعقدت وسائلها ، إيقاعا وتركيبا وتصويرا ، بل إن لكلا الأمرين من التطويل والتعقيد صلة باتساع الرؤية الحضارية ، والنموّ العقلى والفنى ، وتعدد مواطن الاحتكاك بين الثقافة العربية والثقافات الأجنبية الوافدة ، وهى أمور بدأت تفرض نفسها على الساحة الأموية منذ أوائل القرن الهجرى الثانى .

وإذا كان هذا الطور من جماليات الكتابة قد بلغ غايته من الامتداد والتعقيد على قلم عبد الحميد بن يحيي ، فإن بدايته تتوافق مع مطالع ولاية هشام بن عبد الملك ، الذى كان من أكثر خلفاء بنى أمية اهتماما بفن الكتابة ، ومن أشدهم حرصا على التجويد ، سواء بالتدقيق فى اختيار من كان يصطفيهم لكتابته أو الإشراف على ديوان رسائله ؛ كسالم مولاه ، وعبد الله بن سالم ، والأبرش الكلبى ، وبُشَيْر بن أبى دَلَجة (١) ، أو بحسن تذوق البليغ من المنظوم والمنثور ، بل والقدرة على إبداعه ، وقد ذكر الجاحظ « براعة

---

(١) انظر : الوزراء والكتاب - ص ٥٩ وما تلاها .

لسان مسلمة بن عبد الملك » ، فلم يجد من يضاهيه فى هذه البراعة مِنْ وَلَد عبد الملك سوى هشام . (١)

ولسنا ندرى هل هشام نفسه هو الذى أَمْلى هذه الرسالة التى بعث بها إلى يوسف بن عمر ، نائبه على العراق ، أو أن واحدا من كتبته قام بإنشائها على لسانه ، ولكنها — على أى الاحتمالين — توحى بمزاج الفترة ، وتشير إلى مستوى جديد من البسط والتفصيل ، مع ميل إلى استصفاء منخول الكلام ، بل وغريبه أحيانا ، واستغلال واضح للجمل المقيَّدة والاعتراضية ، بما يعنيه ذلك من تعقد الرؤية الإبداعية . يكتب هشام إلى عامله :

« ... وقدم قَدِم زيد بن علي عَلَى أمير المؤمنين فى خصومة عمر ابن الوليد فَفَصَلَ أمير المؤمنين بينهما ، ورأى رجلا جَدِلا لَسِنًا خليقًا بتَمْويه (٢) الكلام وصوْغه ، واجْتِرار (٣) الرجال بحلاوة لسانه ، وبكثرة مخارجه فى حُججه ، وما يُدْلى به عند لَدَد (٤) الخصام من السَّطْوة على الخَصْم بالقوّة الحادة لنَيْل الفَلْج (٥) .. فعجِّل إشخاصه إلى الحجاز ، ولا تُخَلّه والمُقام قِبَلك ، فإنَّه إن أعَاره القومُ أسماعَهم ، فَحَشَاها من لين لفظه ، وحَلَاوة مَنْطِقه ، مع ما يُدْلِي به من القرابة برسول الله صلى الله عليه وسلم . وَجَدَهم

(١) البيان والتبيين — حـ ٣ — ص ١٨٩

(٢) تمويه الكلام : زخرفته بالباطل .

(٣) اجترار الرجال : استمالتهم إليه .

(٤) اللدد . شدة ا'ا

مُيَّلاً إليه ، غير متشتتة قلوبهم ، ولا ساكنة أحلامهم ، ولا مضمونة عندهم أديانهم ، وبعض التحامل عليه فيه أذى له ، وإخراجُه وتركه ، مع السلامة للجميع ، والحَقْن للدماء ، والأمن للفرقة ، أحَبُّ إليَّ من أمرٍ فيه سفك دمائهم ، وانتشار (١) كلمتهم ، وقطع نسلهم ، والجماعة حبل الله المتين ، ودين الله القويم ، وعُروته الوُثْقَى ، فادْعُ إليك أشرافَ أهل المِصْر (٢) ، وأوْعِدْهم العقوبة في الأبْشار (٣) ، واستِصْفَاء (٤) الأموال ، فإنَّ مَنْ له عَقْد أو عهد منهم سيُبْطئ عنه ، ولا يخِفُّ معه إلَّا الرَّعَاعُ (٥) وأهْلُ السَّوَاد (٦) ، ومَنْ تُنْهضُهُ الحاجَةُ استِلْذَاذًا للفِتْنة ، وأولئك ممن يستَعْبِدُ إبْليسَ، وهو يستعبدهم ، فَبَادِهْم (٧) بالوعيد، وأعْضِضْهُمْ (٨) بِسَوْطِك ، وجَرِّدْ فيهم سيْفك ، وأخِفِ الأشراف قبل الأوساط ، والأوساط قبل السَّفْلَة . واعلم أنك قائم على باب ألفة ، ودَاعٍ إلى طاعة ، وحَاضٌّ على جماعة ، ومُشَمِّر لدين الله ، فلا تَسْتَوْحِشْ لِكثرتهم ، واجعل معقلك الذى تأوى إليه ، وصغْوك (٩) الذى تخرُجُ منه ، الثِّقةَ بربِّك ، والغضب لدينك ، والمحاماة عن الجماعة ،

---

(١) إنتشار الكلمة : تفرق الأمر .
(٢) المقصود بالمصر : الكوفة .
(٣) البشرة ظاهر الجلد ، والجمع بشر ، وجمع الجمع أبشار .
(٤) استصفى المال : أخذ صفوه .
(٥) الرعاع : الغوغاء .
(٦) أهل السواد : أهل الريف .
(٧) بادهم : جاهرهم .
(٨) أعضضهم : اضربهم .
(٩) الصغو : الميل .

ومُناصَبةَ مَنْ أراد كَسْر هذا الباب الذى أمَرَهم الله بالدخول فيه ، والتَّشاحُ (١) عليه ، فإنَّ أمير المؤمنين قد أعْذر إليه ، وقَضَى من ذِمامه (٢) ، فليس له مَنْزَى (٣) إلى ادِّعاء حَقٍّ هُوَ له ، ظُلِمَه من نصيب نفسه أو فَيْء أوْ صِلةِ لذى قُرْبى . . . » (٤) .

وقد لا يحتاج من يقرأ هذه الوثيقة إلى كبير عناء ليتبين وفرة الغريب نسبيا ، سواء أكانت هذه الغرابة فى المادة اللغوية نفسها، «كالفلْج»، و « الصَّغْو »، و « التَّشاحّ »، أم كانت فى صيغة الكلمة ، وإن كانت مادتها مألوفة ، كما ورد فى تضاعيف الرسالة من أمثال: « الأبشار » ، « أغْضِضْهم » ، « منزى» ..

وثمة — فى الوثيقة الماثلة — محاولة لبسط الموضوع بعض البسط ، باستيفاء احتمالات الفكرة تارة ، كتصنيف العقوبة إلى ما يقع بالنفس وما يقع بالمال ، وكتصنيف من يقع بهم العقاب إلى أشراف وأوساط وسفلة . ثم تصنيف وسائل العقاب إلى وعيد ، وضرب بالسوط ، وتجريد للسيوف ، وبالترادف وأساليب العطف، بغية توكيد المعانى ، تارة أخرى ، فلا يكفى وصف زيد بن على بالجدل ، حتى يضيف إليه اللَّسَن . وتمويه الكلام ، ثم لا يكفى ذلك أيضاً حتى يجتمع إليه « لين اللفظ وحلاوة المنطق » ، وبهما يستميل « زيد » قوماً « غير

---

(١) التشاح : التنافس فى الحرص عليه .

(٢) الذمام : الحق .

(٣) منزى : موثب ، والمقصود أنه لا سبيل له إلى ادعاء حق .

(٤) تاريخ الطبرى (مرجع سابق) — جـ ٧ — ص ١٦٩ — ١٧١ .

متشئذة قلوبهم ، ولا ساكنة أحلامهم، ولا مصونة عندهم أديانهم »، أما الجماعة « فحبل الله المتين ، ودين الله القويم ، وعروته الوثقى » .

وربما كانت هذه السمات المتمثلة فى الترادف ، ووفرة التراكيب المتعاطفة ، وتكرار المعانى ، من أبرز التطورات التى شهدتها جماليات الكتابة فى أخريات العصر الأموى ، فهى ، بالإضافة إلى ما أشرنا إليه آنفاً من توازن الصيغ وازدواج فواصل الجمل وتوازى الفقرات ، من أكثر الظواهر الصياغية شيوعاً فى هذه الحقبة ، ومن يقرأ رسالة عبد الحميد بن يحيي عن مروان بن محمد إلى ابنه عبد الله بن مروان ، حين وجّهه لمحاربة الضحّاك بن قيس الشيبانى الخارجى ، يلمس غلبة هذه السمات بعامة ، كما يحس بأثر الترادف وتكرار المعانى وتفتيق الأفكار بخاصة فى الوصول بحجم الرسالة إلى مدى لم يعرف من قبل . أما بقية ظواهر الصنعة ، تلك التى حظيت بشمعة مميزة فى فترة متأخرة من العصر العباسى ، كالسجع والتجنيس والطباق وما إليها ، فهى مما لم يُعرف عن سعة فى العصر الأموى ، ولا فيما قبل العصر الأموى من صدر الإسلام (١) ، بل هى لم تعرف باعتبارها ظواهر تتصف بالتعمّد والعموم إلاّ منذ أبى الفضل ابن العميد ، نعنى منذ مطالع القرن الرابع الهجرى ، أما قبل ذلك فلا نكاد نجد من مظاهر التجميل الكلامى سوى التوازن الذى كان من أبرز خصائص

(١) لا ينطبق هذا - بطبيعة الحال - على العصر الجاهلى ، فقد عرف العرب فى هذا العصر ضرباً من الكلام المسجوع اقترنت نسبته بالكهان على وجه الخصوص ، ولإرادة المخالفة بين الإسلام والجاهلية صلة بندرة هذا الضرب فى الفترة موضوع الدراسة . انظر توطئة هذه الدراسة والمراجع المبينة بها .

الأسلوب الكتابي ، « ولا يعني ذلك أننا لا نجد شيئاً من السجع أو البديع فيه ، بل إن السجع والبديع لم يبلغا في تلك المدة ما بلغاه بعدها من السيادة والتحكم في الأوساط الأدبية ، فلم يكونا لذلك منهجاً عاماً يتقيّد به الأدباء ويتجارَوْن فيه »(١) .

ومن الكتب التي تجمع بين مراعاة التوازن والإلمام بالقليل المقبول من الأسجاع كتاب عبد الحميد بن يحيي إلى أهله يعزيهم عن نفسه بعد هزيمة أميوه مروان بن محمد : « وكتبتُ إليكم والأيام تزيدنا منكم بعدا ، وإليكم صَبَابة ووجداً ، فإن تَتِمَّ البَليّة إلى أقصى مدّتها يكنْ آخِرَ العهد بِكُم وبنا ، وإنْ يَلْحقْنَا ظُفْر جارح من أظفار من يَليكم نرجع إليكم بذُلّ الإسار والصَّغَار ، والذُّل شرّ دار ، وألأَم جار ؛ يائسين من رَوْح الطمع وفُسْحة الرجاء . نَسْأَل الذى يُعِزُّ من يشاء ، ويُذِلُّ من يشاء ، أنْ يَهَبَ لنا ولكم أُلْفَةً جامعة ، في دار آمنة ؛ تَجْمع سلامة الأديان والأبدان ، فإنه رب العالمين ، وأَرْحم الراحمين » (٢) .

فالظاهرة الصياغية الملحوظة في هذه الرسالة هي الموازنة بين الفواصل :

شرّ دار - ألأم جار .

جامعة - آمنة .

رب العالمين - أرحم الراحمين .

---

(١) أنيس المقدسي - تطور الأساليب النثرية - ص ١٤٠ .

(٢) الجهشياري - الوزراء والكتاب - ص ٧٣ .

هذا بالإضافة إلى الإلمام بشيء من تقفية الفواصل :

بُعْدا - وجدا ، الرجاء - يشاء . . . إلخ .

وثمة تطور آخر يضاف إلى سلسلة التطورات التي تعرضت لها صياغة الكتب في أخريات العصر الأموى، ونعنى بذلك تطوُّر المعجم الكتابى بازدياد نسبة الاصطفاء والتخيّر فى متن الرسالة ، وإذا كنا قد قرأنا - فيما سلف - رسالة الحجاج فى وصف المطر فراعنا منها الاتّكاء على الغريب إلى حدٍّ يُوهِم بأن منشئ الرسالة كان يقصده قصدا : فإن الإغراب فى مرحلة عبد الحميد الكاتب لا يترك مجالا للتوهُّم أو الشك فى أنه أصبح مظهرا مطَّردا من مظاهر الصنعة ، وأنه أضحى من بين الغايات التى يتوخّاها الكاتب ويحرص على استعراض مذخوره اللغوى من خلالها ، ولعلّ القلقشندى فى « صبح الأعشى » كان يضع عينه على هذه الحقيقة ، حين راح يحدثنا عما أسماه « إيقاع المناسبة » بين الكِتَاب ونوعية المتلقى الذى يتلقّاه ، وحظُّه من الثروة اللغوية ، معلِّلا بهذا « الإيقاع » طابع « الاصطفاء » فى كتابة من دعاهم « بالصدر الأوّل » من الناثرين ، ولعله يقصد بذلك أشباه المحترفين من أمثال سالم أبى العلاء ، وابنه عبد الله ، وعبد الحميد بن يحيى .

يُورد القلقشندى فى تفصيل ما يعنيه بهذا الإيقاع : « ولتحرِّى الصدر الأوّل من الكتّاب إيقاع المناسبة بين كتبهم وبين الأشياء المتقدمة الذكر (يقصد طبقات المخاطبين) استعمل كتاب الدولة الأموية من الألفاظ العربية الفحلة ، والمتينة الجزلة ، ما لم تستعمل مثله الدولة العباسية ؛ لأن كتّاب الدولة الأموية قصدوا ما شاكل زمانهم الذى استفاضت فيه علوم العرب ولغاتها ، حتى عُدَّت فى جملة

الفضائل التى يُتَنابرُ على اقتنائها ، والأَمْكِنةَ التى نزلها ملوكهم من بلاد العرب ، والرجالَ الذين كانت الكتب تصدر إليهم ، وهم أهْل الفصاحة واللُّسَن والخَطَابة والشعر » (١) .

وسواء أكان « إيقاع المناسبة » ، أم هو مجرد الرغبة فى الإبهار عن طريق الإغراب ، فإن من يطالع وصف عبد الحميد بن يحيى للأدوات الحربية - على سبيل المثال - لابدَّ أن يلحظ غرابة التعابير الاصطلاحية التى توسَّع فى استخدامها ، كوصف الدروع بأنها « ماذيَّة الحديد ، شاكَّة النَّسْج ، متقاربة الحَلَق . . » (٢)، أو وصف السيوف « بذُكُور البِيض اليَمَانية ، رقَاق الشُّفَرات ، مسْنُونَة الشَّحْذ ، مُشَطَّبة الضَّرائب ، مُعْتدلة الجواهر ، صافِيَة الصَّفَائح ، لم يدْخُلْها وَهْن الطَّبْع ، ولا عَابَها أَمْتُ الصَّوْغ ، ولا شَانَها خِفَّةُ الوزْن ، ولا فَدَح حَامِلَها بُهُورُ الثِّقَل . » (٣)، أو التعبير عن الرماح « بِطِوَال الهَوَادِى (٤)، مُقَوَّمات الأَوَد ، زُرق الأَسِنَّة ، مُسْتوِيَة الثَّعَالِب ، وَمِيضها مُتَوقِّد ، وسِنْخُها مُتَلهِّب . . » ، ولا ريب أن تراكم الغريب على هذا النحو يشير إلى سعة الخطوة التى خطاها المعجم الكتابى فى هذه الفترة ، بل

(١) القلقشندى . صبح الأعشى - جـ ٦ - ص ٢٩٧ .

(٢) الماذى : خالص الحديد وجيده ، شاكة النسج : متصلة النسج ، الحلق : جمع حلقة .

(٣) الشفرات : جمع شفرة ، وهى حد السيف ، الشحذ : إرهاف حد السيف ، مشطبة الضرائب : للسيوف فى متونها طرائق ، الوهن : الضعف ، الأمت : العوج ، شانها : عابها ، فدح حاملها بهور الثقل : تحمل ما لا طاقة له به .

(٤) طوال الهوادى : طوال الأطراف ، مقومات الأود : مستقيمة لا عوج فيها ، الثعالب : أطراف الرماح ، السنخ : النصل أو الحديدة فى طرف الرمح . والاقتباسات من رسالة عبد الحميد على لسان مروان بن محمد إلى ابنه عبد الله . انظر :

صبح الأعشى - جـ ١٠ - طبعة دار الكتب - القاهرة سنة ١٩١٦ - ص ٢١٨ - ٢١٩ .

قد يوحي - مع ذلك - بتطوّر الفلسفة الفنية من مجرد الحرص على إيصال الدلالة أقرب ما تكون وفاء « بالمطلوب » وسلامة فى التعبير ، إلى حيث يتجلى « المطلوب » عبر مدامبك لفظية مصقولة ، ثم إلى حيث تقترن السلامة بالجمال .

وواضح أن « الإغراب » هنا ليس نابعاً من خصوصية الموضوع فحسب ، بل إنه يعكس مزاج الكاتب ، إن لم نَقُلْ إنه يعكس مزاج الفترة بوجه عام ، وقد نَقَل ابن نباتة فى « سرح العيون » جزءاً من رسالة أخرى لعبد الحميد فى فتنة بعض العمال ، وعلى الرغم من الاختلاف الموضوعي بين الكتابة فى الأدوات الحربية والكتابة فى الفتنة ، فإن حظ تلك الأخيرة من الإغراب لا يكاد يقل كثيراً عمّا لمسناه فى سابقتها ، اقرأ - مثلا - من هذه الرسالة :

« . . حتّى اعْتَرانى حنادسُ جَهَالة ، ومَهَاوِى سُبُل ضَلَالة ، ذَلُلا لِسِيَاقه ؛ وسَلَّمَانِى قِيَاده ، إلى نُزُلٍ من حميم ، وتَصْلِية جحيم ، سِوَى ما أنْتَجت الحَفِيظَةُ فى نفْسه من عَوَائِد الحَسَك ، وقَدَحَت الفتْنة فى قلْبه من نار الغَضَب ، مُضَادَّةً لله تَعَالَى بالمُنَاصَبَة ، ومُبَارَزَةً لأَمير المؤمنين بالمُحَارَبَة ، ومُجَاهِدةً للمسلمين بالمخالفة ، إلى أنْ أَصْبح بِفَلَاةٍ قَفْر ، وتِيهٍ صِفْر ، بَعِيدة المَنَاط ، يُقْطَع دُونها النِّياط ، وكذلك يفْعل الله بالظالمين . ويَسْتَدْرِجُهُم من حيث لا يعلمون . » (١) .

---

(١) حنادس : جمع حندس ، وهو الظلمة ، نزل : منزل ، ، الحفيظة : الغضب ، عوائد : رواجع ، الحسك : الحقد والعداوة ، صفر : خال ، بعيدة المناط : بعيدة المسافة ، النياط : علائق القلب . انظر فى نص هذه الرسالة :

جمال الدين بن نباتة - سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون - دار الفكر العربى - القاهرة - سنة ١٩٦٤ - ص ٢٤٠ .

لمن الجلى أن هذا النموذج لا يعنى فقط بإيصال المعلومة المتمثلة فى تيه الضياع الذى انتهى إليه هذا المارق المفتون ، بل يتحرى - إلى ذلك - مستوى معيناً من الانتقاء اللغوى ، حيث يجنح إلى مواد لفظية مثل : الخندس ، الحسك ، صِفْر ، المناط ، النياط ، وما إليها ، بل لا يقنع بمستوى الانتقاء اللغوى وما يرتبط به من دلالة على درجة الصنعة ، حتى يضيف إليه شيئاً من توظيف التعبير القرآنى فى مثل قوله : « نُزُل من حميم ، وتَصْلِية جحيم (١) » ، وقوله : « ويستدرجهم من حيث لا يعلمون » ، ثم لا يقف عند هذا أوْ ذاك ، وإنّما يقرن إليهما بعض الأبنية التصويرية ، كتقديم الفتنة فى صورة ظلمة يضل بها المفتون الجاهل ، وتقديم الضّلالة باعتبارها هاوية تتلقف الضالِّين ، وإبراز الغضب فى صورة نار داخلية يحترق بها قلب المفتون قبل أن يحترق بها خصومه .

ولعلّ فى إشارتنا تلك إلى توظيف التعبير القرآنى ، ثم إلى اقترانه ببعض الأبنية التصويرية ، ما يلفتنا إلى مجالين آخرين من مجالات الإبداع الكتابى ، وربما تذرّعنا بهذه الالتفاتة إلى تناولهما فى المبحثين التاليين على الترتيب .

* * *

---

(١) الآيتان ٩٣ ، ٩٤ من سورة الواقعة .

(٢) يلحظ الآية ١٨٢ من سورة الأعراف .

الفصل الثالث

الروافد التراثية

فى الأسلوب الكتابى

المقصود بالروافد التراثية أن يستعين الكاتب فى إبداع رسالته باقتباس من البيان القرآنى أو الشعر ، أو باستشهاد بهما ، أو بتلميح إليهما ، أو باستلهام المعنى القرآنى ، أو الفكرة الشعرية ، مجرّد استلهام ، ودون إشارة صريحة أو مباشرة .

وإنما جمعنا بين هذه الروافد على صعيد واحد ، لأن فى الاستعانة بأىٍّ منها توظيفاً لمؤثّر لغوى أو أسلوبى أو دلالىّ خارج عن المادة الخاصة بكاتب الرسالة ، ثم لأن هذا الكاتب بدوره يستشعر أمام تلك الروافد جميعاً عمق الانتماء إلى موروثه الدينى واللغوى والتاريخى ، بغضّ النظر عما ينفرد به أوّلها – الموروث الدينى – من قداسة وامتياز ، ومع التسليم بقيمته الاحتجاجية التى لا تطاولها قيمة .

وللموروث – من حيث هو – حضور حىّ فى وجدان الجماعة ، مبدعين ومتلقّين ، وحين يتوسل المبدع بهذا الموروث للوصول إلى وجدان الجماعة ، يكون قد توسّل إليه بأقوى الوسائل تأثيراً عليه ؛ لأن كل مُعطى من معطيات التراث يرتبط دائماً بهالة من القيم الفكرية والروحية ، بحيث يكفى استدعاء هذا المُعْطَى أو ذاك لإثارة كل

الإيماءات والدلالات التى ارتبطت به فى وجدان السامع أو القارئ تلقائياً . (١) .

الرافد القرآنى :

وتأثر الأسلوب الكتابى بهذا الرافد القرآنى يقع على وجوه متعددة ؛ لأن هذا التأثر قد يكون بالاقتباس ، دون نصٍّ على قرآنية المقتَبَس ، اعتمادا على وضوح نسبته ، ومعرفة المتلقى ببيئته من آى الذكر الحكيم ، كما صنع يزيد بن معاوية فى كتابه - الذى أوردناه آنفاً - إلى أهل المدينة (٢) ، وقد يكون التأثر عن طريق الاستشهاد بالبيان القرآنى استشهاداً صريح النسبة ، استغلالا لصراحة النسبة فى توكيد حجّية النص ، ومن ثم توكيد البرهنة على الموضوع المحتج له ، كما فعل عمر بن عبد العزيز فى كتاب له حين توفى ابنه عبد الملك : ورد فيه : « إنَّ الله تبارك اسْمُه ، وتَعالَى جدُّه ، كتب على خلْقه حين خلَقهم الموتَ ، وجعل مصيرهم إليه ، فقال جلَّ ثَنَاؤُه فيما أنْزَل فى كتابه الصادق ، الذى حفِظَه بعِلْمه ، وأشْهَد ملائكته على حقِّه : « إنَّا نحن نَرثُ الأَرْضَ ومنْ علَيْهَا وإليْنَا يُرْجعُون (٣) » ، وقال لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلم : « وما جعلْنَا لبشَر مِن قَبْلِك الخُلْد أفَإنْ مِتَّ فَهُمُ الخالدون » (٤) . . . فالموت سبيل النَّاسِ فى الدُّنيا ، لم يكْتُب الله لمحْسِن ولا لمُسِيْ فيها خُلودًا ، ولم يرْضَ بما أعْجَبَ أهْلَها فيها ثَوَابًا

---

(١) انظر فى القيمة الفنية للتراث توطئة كتاب :
د . على عشرى زايد : استدعاء الشخصيات التراثية فى الشعر العربى المعاصر - طرابلس - ليبيا سنة ١٩٧٨ - ص ١٨ .

(٢) صبح الأعشى - حـ ٦ - ص ٣٩٠ .

(٣) الآية ٤٠ من سورة مريم .

(٤) الآية ٣٤ من سورة الأنبياء .

لأَهْلِ طاعته ، ولم يَرْضَ بِبَلَاتِها عُقُوبةً لأَهل معصيته ، فكُلُّ شيء منها — أَعْجَبَ أَهْلَها أَو كَرِهوا منه شيئاً — مَتْرُوك ، لذلك خُلِقَتْ منذ خُلِقَتْ ، ولذلك سُكِنَتْ منذ سُكِنَتْ ؛ لِيَبْلُو الله فيها عِبادَه أَيُّهم أَحْسَنُ عَمَلًا . . » (١) .

فنحن من هذا الكتاب بإزاء نوعين من الرِّفد القرآنى لا يخفيان على النظر ، فى أَوَّلهما أشار « عمر » إلى نسبة النص القرآنى إشارة صريحة ، إذْ كان فى مقام توكيد حجِّيته وتوثيق الاستشهاد به بإرجاعه إلى من إليه مرجع الخلق ، ومن أَنْزل الكتاب الصادق وأشهد ملائكته على حقِّه ، وفى ثانيهما (ليبلو الله فيها عباده أَيُّهم أحسن عملا) كان يقتبس من الأُسلوب القرآنى ما يغذِّى أسلوبه مبنى ومعنى ، ومن ثم تغلغل نسيج المقتبَس القرآنى فى نسيج الأُسلوب العمرى ، وأصبح لبنة من لبنات بنيته الحيَّة .

بل إن ثمة من رسائل هذا العصر ما يُقتبس بأَكمله من البيان القرآنى . وغالباً ما يتَّسم هذا الضرب من الرسائل بالإيجاز الشديد ؛ إذ ليس معقولا أن تجتمع الإطالة والاقتباس الكامل ، وقد عرف عمر ابن عبد العزيز بمثل هذا اللون من الكتب ، وبخاصة فيما كان يبعث به إلى عمَّاله وجنوده وأصفيائه من رسائل التوجيه والعظة والتذكير ، وقد حفظ لنا ابن الجوزى قدراً لا بأْس به من هذه الرسائل . وذلك فيما رواه من سيرة عمر بن عبد العزيز ، فليرجع إليها من شاء (٢) .

---

(١) يقتبس من الآية ٢ — سورة الملك . ارجع فى النص الكامل لهذا الكتاب إلى : ابن الجوزى — سيرة عمر بن عبد العزيز — ص ٢٩٦ .

(٢) انظر ، على سبيل المثال : سيرة عمر بن عبد العزيز — ص ٩٨ .

وأحيانًا أخرى كان كتّاب تلك الحقبة يتجافون عن الاقتباس المباشر ، أو الاستشهاد القرآنى الصريح ، إلى مجرد الإلماح والإيماء ، وكأنهم حين تمثّلوا البيان القرآنى حقّ التمثّل ، لم يعد مجرد منطوق أو مكتوب يقنعون بالاقتطاف منه أو الإحالة إليه ، وإنما أصبح محور استلهام لهم ، به يفكّرون ، وعنه تصدر ملكاتهم المبدعة ، فيما تدرك أو ترى أو تتصور ، وفى تلك الحالة يقوم التفكير بالموروث مقام التصريح ، ويحلّ البناء بالمذخور القرآنى محل التعبير به ، مثلما نقرأ فيما نقله لنا الطبرى من كتاب يزيد بن الوليد بن عبد الملك إلى أهل العراق فى التنديد بمساوىء سلفه الوليد بن يزيد بن عبد الملك(١)، ومثلما صنع المهلّب بن أبى صُفْرة حين تمّت له الغلبة على الأزارقة سنة ٧٨ هـ ، إذ كتب إلى أميره الحجاج بن يوسف قائلا :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الكافى بالإسلام فَقْدَ ما سِوَاه ، الذى وَصَلَ المزيد بالشكر ، والنعمة بالحمد ، وقَضَى ألاَّ يَنْقَطع المزيدُ منه ، حتى ينقطع الشكرُ من عباده .

أمّا بعد ، فقد كان من أمرنا ما قد بَلَغَك ، وكنّا نحن وعدوّنا على حالين مُخْتلفيْن ، يسرّنا منهم أكثر مما يَسُوءنا ، ويسُوءهم منّا أكثر ممّا يسرّهم ، على اشْتِداد شَوْكتهم ، فقدْ كان عَلَنَ أمْرُهم حتّى ارْتَاعَت له الفتاة ، ونُوِّم به الرضيع ، فانتهزْتُ منهم الفرصة فى وقت إمْكانها ، وأدْنَيْتُ السَّوَاد من السَّوَاد ، حتّى تَعَارَفَت الوُجوه ، فلم نَزَل كذلك

---

(١) تاريخ الطبرى – جـ ٧ – ص ٢٧٥ – ٢٧٧ ، وفيه يعول على الآيات الأخيرة من سورة الكهف .

حتى بَلَغ الكتابُ أجَلَه ، (فَقُطِع دابِرُ القوم الَّذِين ظَلَمُوا ، والحمد لله ربِّ العالمين) (١) » .

فبالإضافة إلى الاقتباس الختامى الذى انتهت به الرسالة (٢) ، والذى ينطبق مضمونه على المصير القاتم الذى انتهى إليه أمر الأزارقة ، نرى أن الاستهلال بالربط بين النعمة والشكر ، وبين انقطاعها والكفر ، يستلهم نبض البيان القرآنى فى الآية السابعة من سورة إبراهيم ، كما نرى أن التركيب الذى يمهِّد للخاتمة ، والذى يعلن نهايتهم ببلوغ الكتاب أجله ، يستلهم أكثر من موطن فى البيان القرآنى ، وبخاصة الآية الثامنة والثلاثين من سورة الرعد .

الرافــد الشعرى :

رَفَدَ الشعرُ الأجناس النثرية فى الأدب العربى منذ البدايات الأولى لهذه الأجناس ، فقد خالط الخطبة كما خالط الرسالة ، واستعان به رواة الأخبار والقصّاصون ، كما قبس منه مدوِّنو التاريخ ونجوم حلقات السَّمر فى مجالس الخلفاء ، وقد مرَّ بنا حديث الطبرى عن معاوية ، وكيف كان يجلس إلى ثلث الليل ينصت إلى أخبار العرب وأيامهم ، والأعاجم وملوكهم ، وما إلى ذلك من وقائع الأمم وأحوالها ، وكان من نجوم مجلسه عُبَيْد بن شَرِيَّة الجرهمى الذى دُوِّنت أخباره - بُعَيْد ذلك - فيما عرف باسم « كتاب الملوك وأخبار الماضين » ، وقد كانت تتخلَّل هذا الحشد من التراث المنثور شذرات من الشعر المنقول

(١) المبرد - الكامل - جـ ٣ - ص ٤٠٤ - ٤٠٥ .
(٢) الآية ٤٥ من سورة الأنعام .

والمصنوع ، هنا وهناك ، يُقصد بها - أوّلا - إلى الإمتاع والتسلية ، ويُراد بها - ثانياً - إلى الاحتجاج للواقعة أو تأييد الحدث، كما قد يُتوسّل بها - ثالثاً - إلى النيابة عن الأسلوب النثرى فى رواية خبر أو وصف فعل ، وفى كل الأحوال لم يكن الناثر المبدع أكثر حرصاً على تلك الشذرات الشعرية من المتلقى ، ويُحكى أن معاوية كان يلتمس من محدّثه عبيد بن شريّة أن يزيّن حديثه إليه ببعض ما يحفظه من شعر ، فيقول : « سألتُك ألاّ تمرّ بشعر تحفظه فيما قاله أحد إلاّ ذكرتَه » ، ويقول : « فحدّثنى عن لقمان بن عاد صاحب النّسور ، . . وما قيل فى ذلك من الشعر » ، أو يقول بعد أن يسرد عبيد بعض الأخبار : « فهل فى ذلك شعر ؟ » (١) .

وكما ذكرنا ، لم يكن هذا المزج بين الشعر والنثر مقصوداً به إلى مجرد الإيناس ، بل كان يُتذرع به - فوق ذلك - إلى البرهنة على ما يُقال . يقول معاوية لمحدثه : « وأبيك ، لقد أتيتَ وذكرتَ عَجَبًا من حديثك عن عاد ، وقد علمتَ أنّ الشعر ديوان العرب ، والدليل على أحاديثها وأفعالها . والحاكم بينهم فى الجاهلية : وقد سمعتُ رسول الله (ص) يقول : « إنّ من الشعر لحكماً . . » : ويضيف معاوية : « سألتُكَ ألاَ شَدَدْتَ حديثك ببعض ما قالوا من شعر » ، وكثيراً ما كان يعقّب على « عبيد » بعد أن يذكر ما طُلب من شعر ، قائلا : « لقد جئتَ بالبرهان فى حديثك » (٢) .

---

(١) انظر : د . حسين نصار : نشأة التدوين التاريخى عند العرب . ص ١٨ .
(٢) انظر المرجع السابق - الصفحة نفسها .

ولا يختلف الوضع كثيراً فيما نحن بصدده ، فالغاية التى كان يُساق لها الشعر فى الأخبار وأحاديث السَّمَر وقصص التاريخ هى - على وجه التقريب - تلك الغاية التى كان يساق لها فى أدب الكتابة ، حيث تزدوج إرادة الإمتاع الفنى عن طريق الشعر بالرغبة فى إضفاء طابع الصدق وملمح الاحتجاج على الوثيقة المكتوبة ، وقد سلك الحسن ابن علىّ هذا الدرب من دروب الإقناع بالشعر المبثوث عبر الرسالة النثرية ، حين بلغه أن معاوية دسّ بعض رجاله ليأتوه بأخبار الحسن وأعوانه ، فكتب الحسن إلى خصمه :

« أمّا بعد ، فإنّك دَسَسْتَ إلىَّ الرجال ، كأنَّك تحبُّ اللقاء ، لا أشُكُّ فى ذلك ، فتوَقّعْهُ إنْ شَاء الله . وَبَلَغَنِى أنَّك شَمِتَّ بِمَا لم يَشْمتْ به ذَوُو الحِجَى ، وإنَّما مَثَلُك فى ذلك كما قال الأوَّل :

فإنَّا ومَنْ قَدْ ماتَ منَّا لَكَالَّذِى
يَرُوحُ فَيُمْسِى فى المَبِيت لِيَغْتَدِى
فَقُلْ للَّذِى يبْغِى خِلَافَ الذى مَضَى
تَجَهَّزْ لأُخرى مثْلِها ، فكأَنْ قَدِ »(١)

وفى تتمة الموقف أن معاوية يردّ على الحسن ، فينكر عليه ما ادّعاه من شماتة فى موت أبيه ، ثم ينقض ما استشهد به من شعر ، ولكنه لا ينقضه بما يماثله وزنا وقافية ، على ما هو مفروض فى عملية النقض ، وهو تصرف يختلف عما سلكه فى الرد على رسالة ابن عباس إليه فى نفس الموضوع ، فقد كتب إليه ذلك الأخير :

(١) ابن أبى الحديد : شرح نهج البلاغة - المجلد الرابع - طبعة بيروت - ص ١٦ .

« إنَّك وَدَسَّك أخا بَنِي القَيْن إلى البَصْرَة ، تَلْتَمِس مِنْ غَفَلات قُرَيْش مثل ما ظَفِرْتَ به من يَمَانِيَّتك ، لَكَمَا قال أُميّة بن الأسْكَر :

لَعَمْرُكَ إنِّى والخُـزاعىُّ طـارقاً
كَنَعْجَةَ غَادَت حَتْفهـا تَتَحفَّرُ

أثـارت عليهـا شَفْرَةً بـكُرَاعها
فَظَلَّت بها من آخـر الليل تُنْحَرُ

شَمِتُّ بقـوم هُمْ صديقك أهْلَكُوا
أَصَابَهُمْ يوم من الدَّهْر أعْسَرُ » (١)

فكان ردّ معاوية نافيا لدعوى ابن عباس ، التى سبق أن ادعاها الحسن ، كما كان ناقضا لما تمثّل به من شعر ، ولكنه تحرّى أن يكون النقض بأبيات من نفس الوزن ، وعلى نفس القافية :

« أما بعد، فإنَّ الحسن بن على قد كتب إلىَّ بنحو ما كتبتَ به ، وأنْبَنِى بما لم يحقِّق ، سُوءَ ظَنٍّ ورأى فِىَّ ، وإنَّك لم تُصِبْ مَثَلِى ومَثَلَكُمْ ، وإنّما مَثَلنا كما قال طارق الخُزاعىّ يُجيب أُميّة عن هذا الشعر :

فَـوَالله ما أدْرى وإنِّى لَصَـادِق
إلى أىِّ مَنْ يَظُنُّنِى أتَعَـذَّرُ

---

(١) المصدر السابق ـ المجلد ذاته ـ ص ١٦ ـ ١٧ ـ وفى الأصل أن هذه الأبيات لأمية بن أبى الصلت ، ولكن الأظهر أنها ـ كما يورد أبو الفرج الأصفهانى ـ لأمية بن الأسكر ، وقد أوقع النبى (ص) بقومه من بنى زبينة فى غزوة بنى المصطلق ، فاتهموا رجلا من خزاعة بالوشاية بهم لدى المسلمين ، فأنشد أمية هذه الأبيات فى هذا المعنى . انظر فى ذلك :

الأغانى ـ نشرة ساسى ـ مطبعة التقدم ـ مصر (د . ت) ـ جـ ١٨ ـ ص ١٦١ ـ ١٦٢ .

أَعَنَّفُ أَنْ كانَتْ زَبِينَــةُ أَهْلِكَتْ
وِنَالَ بَنِى لِحْيَانَ شَرٌّ فَأُنْفِــرُوا » (١)

وواضح أن التمثُّل الشعرى فى هذا النموذج يقترن بإشارة تاريخية تستثير مناخا تراثيا يتجلَّى فيما كان بين بنى زَبينة (معشر من هوازن) وبنى خُزاعة ، من مُلَاحاة وتخاصم ، وفى غمرة هذه الملاحاة يتهم الشاعر أُمية بن الأَسكر صاحبه طارقا الخزاعى بالوشاية به ويقومه لدى المسلمين فى غزوة بنى المصطلق . ومثل هذا التكثيف فى توظيف التراث الشعرى والتاريخى ، بالإضافة إلى تحرِّى نقض الشعر فكرةً ووزنا وقافية ، كل هذا يزوِّد النصّ المكتوب بغنى فى الصنعة والأداء ، مع رحابة فى الجانب الثقافى من الرؤية الإبداعية .

وقد يصل الأمر إلى حدّ أن تكون الرسالة كلها شعرا ، منقولا عن شعراء آخرين ، أو منظوما بوحى المناسبة ، وقد حكى المبرّد من طريف أخبار الخوارج قول قطري بن الفُجاءة المازنى لأبى خالد القَنَانى ، وكان من قَعد الخوارج :

أبا خالد إنْفِــر فلستَ بخالد
وما جَعَلَ الرحمنُ عُذْرا لقاعد
أتزعُمُ أنَّ الخارجىَّ على الهُدَى
وأنتَ مقيم بين لصّ وجاحد (٢)

---

(١) شرح نهج البلاغة – المجلد الرابع – ص ١٧ ، وقوله « يظنى » فى البيت الأول بمعنى : يرتاب بى ويتهمنى .

(٢) أبو العباس المبرد – الكامل – ج ٢ – ص ١٦٧ .

فكتب إليه أبو خالد ، مجيبا على رسالته ، غير سالك فى إجابته طريق النقض على نحو ما صنع معاوية فى ردّه على ابن عباس :

لَقَدْ زَادَ الحياةَ إلىَّ حُبًّا بَنَاتِى ، إنَّهُنَّ مِنَ الضِّعافِ
أُحَاذِرُ أنْ يَرَيْنَ الفقر بَعْدِى وأنْ يَشْرَبْنَ رَنْقًا بَعْد صافِ
وأنْ يَعْرَيْنَ إنْ كُسِىَ الجَوَارى فَتَنْبُو العَيْنُ عَنْ كَرَمٍ عِجَافِ
ولَوْلَا ذَاكَ قد سَوَّمْتُ مُهْرِى وفى الرَّحمن للضُّعَفَاء كافِ
أبَانَا ، مَنْ لَنَا إنْ غِبْتَ عَنَّا وصَارَ الحىُّ بَعْدك فى اختلافِ(١)

وأكثر ما تكون هذه الرسائل الشعرية الكاملة ، حين يكون المقام مقام تذكير أو عُتْبَى بين ذوى المودّة أو أصحاب الطريق الواحد ، كما هو الحال بالنسبة لقطرى وأبى خالد ، إذ لا يقتضى الأمر بين من هذا شأنهم أكثر من التنبيه الذكى والإيحاء المضمر ، وكِلَاهما ممّا يوفّره الأسلوب الشعرى بكثافته وسماته التركيبية . أما بين أصحاب الأهواء المختلفة ، فقد يقتضى الموقف حِجَاجا أو تفنيدا أو مناقشة لا تتهيأ بكمالها إلّا فى القالب النثرى ، ومع ذلك فربما رأينا بين الخصوم بعض الرسائل التى صيغت شعرا خالصا ، مثل ذلك الذى أورده صاحب « الإمامة والسياسة » على لسان معاوية إلى ابن الزبير ، وردّ ابن الزبير بدوره على معاوية (٢) ، فكلتا

(١) المصدر السابق - حـ ٣ - ص ١٦٧ . والرنق فى البيت الثانى : الكدر ، والكرم فى البيت الثالث يستوى فى الوصف به المذكر والمؤنث والجمع ، أما عجاف فجمع عجفاء ، أى هزيلة .

(٢) الإمامة والسياسة - الجزء الأول - مصدر سابق - ص ١٩٣ - ١٩٤ .

الرسالتين ضيقتا شعرا ، بل إن ثانيتهما بدت وكأنها تتحرى نقض الأولى معنى وصورة ووزنا وقافية ، غير أن فى تينك الرسالتين - بعد ذلك - نوع من تهافت النسج لا ينسجم والمستوى الفصاحى للفترة ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن شعرهما قد أنشئ إنشاء ، ولم ينقل عن آخرين ، ولم يكن أىٌّ من معاوية وابن الزبير - فيما نعلم - بذى باع طويل فى النظم ، ثم إذا جمعنا إلى هذا وذاك أن بعض ما يحكيه صاحب « الإمامة والسياسة » عن الأمويين وخصومهم ينبغى أن لا يؤخذ على عِلَّاته ، وجب أن نتذرّع بكثير من الحذر ونحن نقرأ نسبة الرسالتين إلى معاوية وابن الزبير .

وقد استخدم بعض كتّاب العصر ما أسماه الشهاب الحلبى - فيما بعد - باسم التلميح ، وهو « أن يشير فى فحوى الكلام إلى مثل سائر أو بيت مشهور أو قضية معروفة . من غير أن يذكره »(١) : وقد أشار المسعودى إلى نحو من هذا التلميح فى قصة للحجاج مع عبد الملك بن مروان ، فقد كتب أولهما إلى ثانيهما يهوّل فى أمر الخوارج . فبعث إليه عبد الملك :

« أما بعد ، فإنى أحمد إليك السّيف ، وأوصيك بما أوصى به البكْرىُّ زيدًا » ، فلم يفهم الحجاج ما عناه عبد الملك ، حتى أتاه رجل من أهل الحجاز ، فأخبره بما نصح به البكْرى ابن عمه زيدا ، حين أوصاه بقوله :

---

(١) شهاب الدين الحلبى - حسن التوسل إلى صناعة الترسل - نشرة أمين هندية - مصر سنة ١٣١٥ هـ - ص ٨٨

أَقُولُ لِزَيْدٍ لا تُثَرْثِرْ فإنَّهم ... يَرَوْن المَنَايا دون قَتْلِكَ أَوْ قَتْلِي
فإنْ وَضَعُوا حرْباً فَضَعْها،وإنْ أَبَوْا ... فَشُبَّ وَقُودَ الحرب بالحَطَب الجَزْلِ
فإنْ عَضَّت الحربُ الضَّرُوس بِنَابِهَا ... فَعُرْضَةُ نار الحرب مِثْلُكَ أَوْ مِثْلِي

فقال الحجاج : صَدَق أمير المؤمنين ، وصدق البكرى » .(١)
وهذا الإيماء إلى الشعر من خلال الرسالة ، يكشف عن سعة ثقافة الكاتب وتنوعها ، ولكنه حين يجنح إلى الإغراب أو الإحالة إلى البعيد المجهول ، ينتقل إلى حيث يغدو ضربا من الإلغاز أو التعمية ، وكلاهما ينأى بأدب الكتابة عما ينبغى أن يتمتع به فن القول - بعامة - من قدرة على البوح والإفضاء .

---

(١) المسعودى - مروج الذهب - جـ ٢ - ص ١٥٩ -.

الفصل الرابع

مستوى الصورة الفنية

فى بنية الرسالة

السمة المجازية ، والصبغة التصويرية ، هما – فى اعتبار بعض الباحثين (١) – أبرز ما يميز النُّقلة الفنية فى أسلوب الكتابة قرب غروب العصر الأموى ، تلك النقلة التى حمل عبئها – على وجه الخصوص – عبد الحميد الكاتب .

والحق أن عبد الحميد لم يخترع هذه السمة المجازية ، ولم يبتدع هذه الصبغة التصويرية ابتداعا ؛ لأنهما خصيصتان فى التعبير الفنى يقترنان بوجوده منذ البواكير الأُولى ، وإن تفاوتت جرعة كل منهما فى العمل الأدبى طبقا لاختلاف العصور والبيئات . ومن قديم لمح أرسطو مكانة الأسلوب المجازى فى الإبداع الأدبى ، وأكَّد أن هذا الأسلوب « مهم جدا فى الشعر والنثر على السواء (٢) » . وربّما كان عبد الحميد أكثر تكثيفا لهذا الأسلوب المجازى ، بحيث لم يعد مقصورا على الفلتات الشاردة ، أو الأمثلة التى لا تجلُّ عن

---

(١) الأدب الكلاسيكى العربى – مرجع سابق – ص ١٠٩ .

(٢) أرسطو – الخطابة – مرجع سابق – ص ١٩٧ .

الحصر ، بل أخذ مسار الظاهرة فى عمومها ودورانها ، وربما كان - كذلك - أشد ميلا إلى تركيب الصورة الفنية وتعقيدها على نحو يتجاوز تلك العلاقات الجزئية البسيطة التى عُرفت فى فجر النثر العربى ، ولكنه - بالقطع - لم يكن الرائد الأول والوحيد على هذا الدرب .

فى كتاب معاوية إلى عامله على المدينة سعيد بن العاص ، يصف له شخصية عبد الله بن الزبير ، ويحذره منه : « فأمّا مَنْ يرد مع السباع إذا وردتْ ، ويكْنِسُ إذا كَنَستْ ، فذلك عبد الله ابن الزبير ، فاحذرْهُ أشدَّ الحذَر .. » (١) ، فانظر كيف جعل صورة ذلك الذى يحتمى بمصاحبة السباع إذا برزت للماء ، ويختبئ معها إذا استترت . معادِلاً لمن يغتنم الفرصة ، ويتابع الناس إذا وجد فى متابعتهم خيرا له ، يعنى بذلك ابن الزبير .

أمّا «زياد» فيخاطب الحسن بن على بمقلوب الصورة القرآنية التى تنفِّر المؤمن مِنْ أكل لحم أخيه ، وكأنّه لا يأْنف كثيرا من إيحاء هذا القلب ، وما عسى أن يومئ إليه من ضراوة وافتراس ؛ ناهيك عن قلة الورع ورقّة الإيمان : « وايْمُ الله لأطْلُبنّه (وكان الحسن قد أجار سعيد بن أبى سرح من زياد) ولوْ بين جلْدك ولحْمك ؛ فإنّى أُحبّ أن آكل لحما أنتَ منه .. » (١) .

(١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة - حـ ١ - ص ١٦٣ .
(٢) ابن عبد ربه - العقد الفريد - حـ ٣ (نشرة محمود شاكر الكتبى) - ص ٢،٢٢

وتستمر هذه النزعة التصويرية على مدار الحقبة موضوع الدراسة ، مع اختلاف الكاتبين وملابسات وجودهم تاريخيًا وبيئيا ، ومع اختلاف النِّسب والمقادير التى يحظى بها كل منهم من تلك النزعة ، وتجد أطرافا منها فى كتابات قطرى بن الفجاءة ونجدة ابن عامر ، كما تجدها فى رسائل المهلَّب بن أبى صُفْرة وقتيبة ابن مسلم وابن القِرِّيَّة ، ولكنها فى كتابة الحجاج تحظى بنوع من الوفرة والتميز ، ولا ننسى فى هذا المقام حوارياته الكتابية المشهورة مع ولىّ نعمته عبد الملك بن مروان ، ومن طريف هذه الحواريات ما روى عن العملاقين فى أوقات الشدة بينهما ، حين كان الخليفة يمتلىء بما يلقى على مسامعه من حديث ساخطٍ على صاحبه ، فتهيج مشاعره ، ويغصُّ حلقه بالمرارة ، ويهمُّ بعزل عامله ، ولكن الحجاج ما يزال به ، يتضرع ويعتذر ، ويستلين ويسترضى ، ويستخدم كل ما أوتيه من مقدرة فذَّة على الإبانة والتصوير ، حتى يستلَّ سخيمة أميره ، ويهدهد من مواجده ، وينقل صاحب العقد عن أبى عثمان الجاحظ طرفا من نتاج أوقات الشدة هذه ، مصوِّرا حالة الحجاج المتوفزة الضارعة ، إثْر رسالة من رسائل أميره المتوعدة ، إذ « أمر — يعنى الحجاج — بدواة وقرطاس ، فكتب بيده ، وما رفع القلم إلَّا مستمدًّا ، حتى سطَّر مثل خد الفرس » (١) .

وإذا وشَتْ هذه العبارة الأخيرة بأن الحجاج كان يكتب رسائله — بعضها على الأقل — بخط يده ، فإن ما كتب به إلى أميره

---

(١) المصدر السابق — نفس الجزء والطبعة — ص ٢٣٩ .

الغاضب يكشف عما كان يتمتع به من طاقة تصويرية لا ينقصها السخاء والتميز . اقرأ - على سبيل المثال - من هذه الرسالة المعتذرة :

« . . . مِنْ عَبْد اكْتَنَفَتْه (١) الذِّلَّة ، ومدّ به الصَّغَار (٢) إلى وَخِيم المرْتَع (٣) ، ووَبِيل المَكْرَع (٤) . . . وقد أَخَذْتُ مِن أمير المؤمنين نصيبا اقْتَسَمه الإشْفاق من سُخْطه ، والمواظبة على موافقته ، فما بقى لنا بَعْدُ إلّا صُبابة (٥) ، وإرث (٦) تَجُول به النفس ، وتَطْرف النَّواظر ، ولقد سِرْتُ بعين (٧) أمير المؤمنين سير المُثَبِّط (٨) لمن يتلوه ، المتطاول لمن يقْدُمه ، غير مُبتٍّ مُوجِف (٩) ، ولا مُتَثَاقِل مُجْحِف (١٠) ، فَفُتُّ الطالب ، ولحِقْتُ الهارب ، حتّى ثَارت السُّنَّة (١١) ، وبادَت البِدْعة ، وخَسِئ الشيطان (١٢) ، وحُمِلَت الأَديَانُ إلى الجادّة العظْمَى (١٣) ، والطَّريقةِ المثلَى ، فَهَأَنَذَا يا أمير المؤمنين نُصْبُ

(١) اكتنفته : أحاطت به .

(٢) الصغار : الهوان .

(٣) وخيم المرتع : المرعى الضار بآكله ، وهو تعبير عن سوء المورد وفساد العاقبة .

(٤) الكرع الوبيل : مورد البهائم من الماء الفاسد .

(٥) صبابة : بقية الشراب فى الإناء .

(٦) الإرث : البقية .

(٧) بعين أمير المؤمنين : أراد أن سيرته فى الناس كانت بحيث يعلمها الخليفة .

(٨) المثبط : من قولهم ثبطه عن الشىء ، أى عوقه وأبطأ به ، يريد سبقه فى خدمه الأمير .

(٩) المبت : المجهد لمطيته فى السير حتى يقطعها ، الموجف : من الوجيف ، وهو العدو .

(١٠) يريد أنه لم يتوان فى خدمة الأمير .

(١١) ثارت السنة : انتعشت ونشطت .

(١٢) خسئ : اندحر .

(١٣) الجادة : الطريق الأعظم .

المسألة لمن رَامَنِى ، وقد عقَدْتُ الحُبْوة (١) ، وقَرنتُ الوَظِيفَيْن (٢) لقائل مُحْتَج ، أَوْ لائم مُلْتَج (٣) . . . وَمَا حَفَنْتُ (٤) يا أمير المؤمنين فى أَوْعِيَة ثَقِيف حتى رَوىَ الظمآن . وبَطِنَ الغَرْثان (٥) ، وغَصَّت الأَوْعية ، وانْقَدَّت الأَوْكِية (٦) فى آل مروان . . » (٧) .

ونلحظ فى هذه اللوحة الاعتذارية عدة صور كبرى ، وبعض هذه الصور مستمد من مجال المرعى الضار والمشرب الفاسد ، تعبيرا بهما عن سوء المنقلب الذى آل إليه حال الكاتب ، ولكن هذه الصورة المتصاغرة المعترفة لا تلبث أن تُقابَل بوضع لا أثر فيه للضراعة أو التذلُّل ، هو وضع المعتذر فى سالف خدمته للمعتَذَر إليه ، فهو الجواد السابق لغيره فى هذا المضمار ، يُعْجز الطالب ، ويدرك الهارب ، ثم سرعان ما تختفى تلك المصادر الرعوية والحيوانية للصورة ، ليحلَّ محلها وضع المحتبى الجامع لوظيفيه إلى بطنه ، إيحاء بالاستعداد التام للمحاسبة ، ثقة ببراءة ساحته ، وإيمانا بصادق مودّته تجاه صاحبه ، ولتتآزر مع ذلك كله صورة حميمة الصلة بالبيئة العربية التراثية ، صورة ذلك الذى يحفن ملء

---

(١) الحبوة : جلسة تشد فيها الساقان إلى البطن بالذراعين . وعقد الحبوة تعبير عن التهيؤ للمساءلة .

(٢) الوظيف : مقدم الساق .

(٣) الملتج : المادى فى الخصومة .

(٤) حفن الشيء : أخذه براحته .

(٥) بطن : امتلأ بطنه ، الغرثان : الجوعان .

(٦) انقدت : انقطعت ، الأوكية : جمع وكاء ، وهو الرباط يشد به الكيس ونحوه .

(٧) العقد الفريد - جـ ٣ (نشرة الكتبى) - ص ٢٤٠ - ٢٤١ .

يده فى أوعية ثقيف ، بقدر وفى قصد ، على حين لم يترك وعاءً أمويا إلا وقد امتلأ ، ولا بطنا فى آل مروان إلا وقد أتخم . وكأنّ الكاتب يضع هذه المعاملة القاصدة لبنى قومه ، فى مقابل معاملته المسرفة فى السخاء على بنى أمية ، وكأنه — أيضا — يردّ بالصورة على اتهام أميره له بممالأة ذويه والإسباغ عليهم .

وفى النثر الكتابى لدى الحسن البصرى ترى الوجه النقيض لذلك الذى رعى فضلّ حتى أورده الضلال « وخيم المرتع » ، ترى فى الإمام العادل وجه « الراعى الشفيق على إبله ، الرفيق الذى يرتاد لها أطيب المرعى ، ويذودها عن مراتع الهلكة ، ويحميها من السّباع ، ويَكْنُفُها من أذى الحر والقرّ » (١) ، وهى صورة تتردد كثيرا فى النثر الكتابى بعامة ، وفى الوعظى منه بخاصة ، لصلة نسيجها بواقع الحياة الرعوية القديمة ، ولشدة إيحائها بالحنوّ والإشفاق من الراعى على الرعية...

والموضوع الأثير للصورة الفنية لدى الحسن البصرى هو ذمّ الدنيا فى علاقتها بالإنسان ، وفى علاقة الإنسان بها ، وكثيرا ما يتجلى الطرف الإنسانى فى هذه العلاقة فى صورة الجريح الذى يعانى من الألم العلاجىّ القليل ما يرجو به الشفاء الطويل ، أو يحتمل من الزهد فى عاجل هذه الحياة ما يأمل به استدامة الآجل من نعيم الآخرة : « فكن فيها يا أمير المؤمنين — يقول الحسن مخاطبا

---

(١) العقد الفريد — جـ ١ (نشرة لجنة التأليف والترجمة والنشر) — ص ٣٩ .

عمر بن عبد العزيز - كالمُداوى جرحه ، يصبر على شدة الدواء ، مخافة طول البلاء ، ويحتمى قليلا ، مخافة ما يكره طويلا . . » (١)

أما الطرف الدنيوى فى هذه العلاقة فيتجلى عبر أشكال وهيئات تصويرية مختلفة ، ولكنها تتفق جميعا فى المغزى الكامن وراءها ، وهو مغزى يستقطب دلالات الأذى ، والخديعة ، والمراوغة والاغترار . فهذه الدنيا - تارة - « كالسم يأكله من لا يعرفه وفيه حتفه ، فالزاد فيها تركها ، والغِنى فيها فقرها . . » (٢) ، وهى تنبرى - تارة ثانية - « كالحيَّة ، ليّن مسها ، تَقْتل بسمّها . . » (٣) ، ولأن فيها من سمات الأفعى التلوّن والتقلب ، فإنها سرعان ما تتقمص - مرة ثالثة - ثوب الغادة الحسناء المخاتلة : « فأصبحتْ كالعروس المجْلُوة ، فالعيون إليها ناظرة ، والقلوب عليها وَالِهة ، والنفوس لها عاشقة ، وهى لأزواجها كلُّهم قاتلة .. »(٤) ، وفى كل هذه الحالات نحن بإزاء تجلّيات صوريّة تنهض على المفارقة بين المخبر والمظهر ، وبين الشكل والجوهر ، وهى مفارقة يفتقر موضوعها - نعنى الدنيا - إلى مقوّمات الصدق والثبات والحقيقة .

وتتعقّد الصورة فى كتابات عبد الحميد بن يحيى ، ويرْحب بناؤها إلى حد يجعل منها لوحة كاملة تشف عن خاطرة أو شعور ،

---

(١) ابن الجوزى - سيرة عمر بن عبد العزيز - ص ١٢١ .
(٢) المصدر السابق - نفس الصفحة .
(٣) المصدر السابق - ص ١٢٢ .
(٤) المصدر نفسه ص ١٢٢ .

فلم تعد لمحا جزئيا ، كما كانت فيما قبل ، ولم تعد مجرد علاقات مجازية سريعة ، كتلك التى شهدتها فترة البدايات ، بل غدت قريبة — نوعا مّا — من المفهوم الحديث للصورة الفنية ، من حيث هى « مظهر لمركّب عاطفى وعقلى » (١) ، وهو المركّب الذى ينمّ عن تعقيد رؤية المبدع ضربا من التعقيد .

فى رسالته الذائعة إلى الكتاب . يستعير عبد الحميد بن يحيي لموقف الكاتب من ذوى العلاقة والمتعاملين معه ، صورة السائس الذكى فى موقفه من الحيوان الذى يروّضه ويقوّمه ويعالج عيوبه ، فتشعر أن الصورة هنا لا تقف عند حدود الملامح الحسية أو الجزئية ، وإنما توحى بجملة من المعانى والصفات الخلقية والنفسية : دعنا نقرأ قوله :

« وإذا صَحِبَ أحدُكم الرَّجُلَ فلْيَسْتَشِفَّ خَلائقه ، كما يستَشِفّ الثوب يشتريه لنَفْسه ، فإذا عرف حَسَنَها وقبيحَها ، أعانَهُ على ما يوافِقُه مِنَ الحَسَن ، واحْتَال لصرْفِهِ عمّا لا يوافقه من القبيح ، بألْطَف حيلة ، وأحْسَن مُدَارَاة ورُفْقة . فقد عرفتُم أنَّ سائس البَهيمة إذا كان حاذقا بسياستها ، التمس مَعْرفة أخْلاقها ، فإن كانت رَمُوحًا (٢) اتَّقاها مِن قِبَل رجْلها ، وإن كانت جَمُوحًا (٣) لم يَهِجْها

(١) التعبير لإزراباوند . انظر :

Rene Wellek and Austin Warren,. Theory of Literatue. London, 1955, P. 192.

(٢) الرموح : التى ترفس برجلها .

(٣) الجموح : الفرس الذى يجرى غالبا راكبه .

إذا رَكِبها ، وإذا كانتْ شَمُوساً (١) تَوَقَّاها من ناحية يدها ، وإنْ خافَ منها عِضَاضًا تَوَقَّاها من ناحية رأْسها ، وإنْ كانت حَرُونًا لم يُلَاحِهَا (٢) ، وتَتَبَّع هواها فى طريقها ، وإن اسْتَمْرتْ (٣) عَطَفَها ، فيَسْلس له قيادها ، وفِىْ هذا الوصف من سائس البهيمة ، ورفق سياسته ، دليل وأدَب لِمن ساس الناسَ وعامَلَهُم ،وخَدَمهم وصَحِبَهُمْ ..»(٤)

فالصورة المنتزعة من رياضة الحيوان لتوحى بما تعادله من رياضة الإنسان وحسن التأتِّى فى معاملته ، هى صورة موقف بأكمله ، موقف يتذرع فيه المروِّض - السائس والكاتب - بكل ما وُهبه من صبر وحيلة ومداراة ، ولا يزال بموضوعه - الحيوان والإنسان - يكفكف من جموحه ، ويهدهد من توفُّزه ، ويتقى من بدواته ، حتى يسلس له القياد ، ويذلّ له الصعب ، ويصل إلى مبتغاه من تقويم المائل ، واجتذاب النافر ، ورد الجامح ، وجميعها إيماءات ما كنا لنَصِل إليها لولا التجاء كاتب الرسالة إلى مثل تلك الصورة المركَّبة .

ولمصادر الصورة عند عبد الحميد صلة بموروث البيئة ، ولكنها صلة شبه رمزية ، فى رسالته على لسان مروان بن محمد إلى ولده عبد الله نراه يلجأ إلى صورة عناصرها مستقاة من البيئة العربية التقليدية ؛ فا«لحِكْمة» كشجر النبع القوى ، الذى ينمو فى قلل الجبال ، وتتخذ منه القسىّ والسهام ، والأمير

(١) الشموس : الفرس الذى لا يمكن أحداً من ظهره .
(٢) الحرون : الذى يأبى الانقياد ، لم يلاحها : لم ينازعها .
(٣) استمرت : اشتدت وامتنعت .
(٤) الجهشيارى : الوزراء والكتاب - ص ٧٦ - ٧٧ .

- عبد الله - قد حظي من هذا الشجر بأكرم نبعة ، وسما منه إلى لبّ اللباب ، أو المحض الخالص من نفائس هذه الحكمة : « وقد تَلَقَّتْكَ أخلاقُ الحِكْمة من كل جهة بفضلها ، من غير تَعَب البحث فى طَلَبِها ، ولا تَطَاوُلٍ لمُنَاوَلة ذِرْوتها ، بل تـأثَّلْتَ منها أكْرَمَ نَبَعَاتِها ، واستَخْلَصْت مِنْها أعْتَقِ جواهرها ، ثم سَمَوْتَ إلى لُبَاب مُصَاصِها ، وأحْرَزْتَ مُنْفَسَ ذخائرها ، فاقْتَعِدْ ما أحرزْت ، ونافس فيما أصبْت .. »(١)

فمن الجلىّ أن عناصر كالذروة والتأثُّل (مصدر تأثل) والنبعة (مفرد النبعات) ، هى أقانيم صورية مستمدة من البيئة العربية التقليدية . ثم هى بالنسبة لمبدعها ليست واقعا يُعاش . بقدر ما هى مثيرات شبه رمزية ، تستدعى ذلك المناخ التراثى .

وثمة جانب آخر من جوانب الصورة الكتابية أثناء الحقبة الأموية ، وهو جانب إنْ يكن أقل من سابقيه أهمية ، فقد يكون من تتمة القول أن نختتم حديث هذا الفصل به ، وهو الجانب المتعلق باستعانة كتاب هذه الحقبة بفحوى الحكاية أو المثل فى دعم الفكرة المكتوبة ، وهى استعانة ذات محصّلة تصويرية ؛ لأنها تشير بواقعة ماضية إلى واقعة معاصرة ، ولأنها تتخذ من نسيج الحكاية أو المثل تجسيدا لما يريد الكاتب أن يقول ، وقد كان الحجاج كثيرا ما يستخدم التمثيل والحكاية فى رسائله ؛ ومن قبله عرف معاوية بنحو من هذا ، وبخاصة فى جملة الرسائل التى تبادلها مع

---

(١) صبح الأعشى - جـ ١٠ - ص ١٩٦ .

أخيه زياد، قبل مبايعة الأخير له، ثم فى بعض ما كان يكتب به إلى المغيرة بن شعبة .

وقد روى صاحب العقد الفريد أن المغيرة بن شعبة حين كبر وخاف أن يُستبدَل به ، كتب إلى معاوية : « أمّا بعد ، فقد كبرتْ سِنِّى ، ورقَّ عَظْمِى ، واقْتَرَبَ أجَلى ، وسَفَّهنِى سُفَهَاءُ قريش ، فرأى أمير المؤمنين فى عمله موفّق »(١) ، والإشارة الأخيرة إلى العمل يقصد بها إلى عمل المغيرة نائبا لمعاوية على العراق ، وكأنّما فَهِم الأخير أن صاحبه يريد أن يعرف نواياه بالنسبة إلى هذا العمل بعد أن هرم وأصبح مظنّة العجز عن القيام بمسئولياته ، فردّ عليه متمثّلا بما لا يشف عن نية أو يشفى غليلا : « . . أمّا ما ذَكَرْتَ مِنْ كِبَرَ سنِّك ، فأنت أكَلْتَ شبابك ، وأمّا ما ذكرتَ من اقتراب أجَلك ، فإنّى لوْ أسْتَطيع دفْع المنيّة لدفعْتُها عن آل أبى سُفْيان ، وأمّا ما ذكرتَ من سفهاءِ قريش ، فَحُلَماؤُها أحلُّوكَ ذلك المحلّ ، وأمّا ما ذكرتَ من أمر العمل ، فضَحٍّ رُوَيْدًا يُدْرِك الهَيْجَا حَمَل .. »(٢) فالتعبير الخاتم للرسالة سار مسيرة المثل ، ويقصد به إلى الحث على الترفّق والأناة وعدم العجلة فى تقصّى المطلوب ، حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا ، وهو مقصود يدلّ على فقدان الرغبة من قبل معاوية

(١) العقد الفريد — جـ ١ — نشر لجنة التأليف والترجمة — ص ٩٧ .

(٢) ضح رويدا : لا تعجل ، الهيجا : الحرب ، حمل : هو حمل بن بدر ، وقيل حمل ابن سعدانة الصحابى .

فى الجهر بنواياه ، ثم هو مقصود لا يفصح عنه منطوق التعبير مجردا ، بل يسهم فى الإيحاء به مضرب المثل أو مناسبة القول ، وذلك — على التحقيق — هو الملمح التصويرى فى الأمثال وما جرى مجراها ، حين تستخدم فى الكتب وما ينحو نحوها من فنون القول .

* * *

ختام ما قبل

في نهاية مطافنا بالنثر الكتابي في العصر الأموي ، قد لا يكون الموضوع بحاجة ـ بعدُ ـ إلى مزيد من البسط أو التفصيل ؛ خشية أن يُفضي هذا أو ذاك إلى تكرار لا نريده ولا نرضاه ، ويكفي أن نستقطب في هذه الخاتمة بعض الحقائق التي انداحت في تضاعيف الدراسة ، والتي تحظى من الأهمية بما يقتضي وضعها في منطقة الضوء مرة أخرى .

وأولى هذه الحقائق ما لعله أصبح واضحا من أن أدب الكتابة العربية في فجره الأول ظل يحمل طابع البديهة . وغضارة الفطرة ، في التعبير والصياغة ، فلا قصد إلى بديع أو سجع أو تجنيس أو ما أشبهها ، وبخاصة أن هذا النحو من الزخرفة الكلامية لم يكن يتمتع بالرضا الكامل عند الرعيل الأول من المسلمين ؛ لما فيه من مظنّة سجع الكهانة المستنكَر ، وفي مقابل ذلك كان الأسلوب النثرى السائد أكثر جنوحا إلى المباشرة في الأداء ، والرفق والاعتدال في استخدام ضروب التجميل أو وسائل التصوير الفني ؛ مع فلسفة إبداعية تتلخص في نقل المراد وإيصال الدلالة من أقرب طريق .

ومثل هذه الفلسفة الجمالية التي لم تبلغ مداها من النمو والتعقيد ، تقتضي ـ بالطبع ـ ضربا من الإيجاز والتركيز ، لأن الكلمة بالنسبة لها ليست ترفا ، وليست مقصودة لذاتها ، بل هي

كلمة « موظفة » لأداء غاية ، وهذه « الغائية » تجعل القول على قدر ما يراد قوله ، فلا لعب بالألفاظ ، ولا استعراض لمذخور كلامى أو مهارة صياغية ، ولا إطناب يخرج بالعمل عن حدود المُفْتَرَض أو المفروض .

غير أن منطق التطور لا يلبث أن ينال من صلابة هذه القيم العملية فى بناء العمل الكتابى ، فالقيم مثلما ترتبط بعنصر المكان ، ترتبط بعنصر الزمان ، وقد تعرّض المكان والزمان جميعا لفيض من التغيّرات الحضارية ، بدأت وئيدة ، واستمرت حثيثة ، ثم انتهت مع نهايات العصر إلى عواصف تهزّ متوارث القيم هزًّا عنيفا .

ويمكن أن يقال إن هذه التغيرات الحضارية قد اقترنت من البداية بتطورات موازية فى النثر الكتابى ، فيها ما فى هذه التغيرات الحضارية من رفْق واتّئاد ، وتجلّى هذا منذ مطالع العقد السابع — من القرن الأول — فى كتابات عمرو بن سعيد بن العاص ، وعبيد الله بن زياد ، وعمرو بن نافع ، وقد كان الأخير منهم — بخاصة — كاتبا من الكتّاب الرسميّين لابن زياد ، ويقال إن بدايات التطويل فى الرسائل كانت على يديه : وإن كنّا قد استبعدنا — من جانبنا — أن يكون التطويل ظاهرة من ظواهر هذه الآونة . (١)

وإذا اعتبرنا نتاج هذا الرعيل من الكتّاب طورا ثانيا من أطوار أدب الكتابة الأموى ، بعد الطور الأوّل الذى مثّلته كتابات معاوية

---

(١) انظر فى هذا : الفصل الأول من الباب الثانى ، والمراجع المبينة هناك .

وزياد والحسن والحسين ومن إليهم ، فإن الطور الثالث سيقدَّر له أن يواكب العقد الثامن من القرن الأول ، وسيبرز فيه كتَّاب أمثال الحجاج بن يوسف والمهلَّب بن أبى صُفْرة وابن القِرِيَّة التميمى ويحيى بن يَعْمَر ، وفيه يزداد انعكاس التغيُّرات الحضارية على تطورات النثر المكتوب ، فيصبح حجم بعض الرسائل فوق متوسط المعهود منها فيما قبل ، وبخاصة حين يكون المقام مقام إدانة واتِّهام ، أو مقام عتاب واعتذار ، كما كان يحدث بين عبد الملك والحجاج . على سبيل المثال .

وعلى قلم الحجاج بالذات تزداد جرعة التحبير ، متمثلة – أولا – فى نوعية المعجم الكتابى ، الذى أصبح يجنح إلى التنقيح والإغراب ، بل غدا يتعمدهما – فى عدد من الحالات – تعمدا ، ومتجلِّية – ثانيا – فى مزيد من العناية بالصورة الفنية ، مع إلمام مقبول – ثالثا – بوسائل التّحلية وأصباغ التجميل الكلامى، كالسجع والتجنيس وما إليهما .

ولا تقتصر المرحلة الحجاجيّة على هذا القدر من التطور الفنى ، بل تقترن – كذلك – بضرب من التطوّر الحِرَفى ، إذا صح هذا التعبير ، نعنى التطور فى أدوات الكتابة وملابساتها من حيث هى مهنة ، ويرتد هذا التطور بدوره إلى مصدرين : أولهما بدء عناية الخلفاء ، وعلى رأسهم الوليد بن عبد الملك ، بالأدوات والمظاهر الكتابية ، كالحرص على أن تكون الكتابة فى طوامير (صحف) ، والاهتمام بتجليل الخطوط التى يكتب بها ، وتعظيم الرقاع التى يكتب

فيها (١) ، وثانيهما العمل على إتمام تعريب الدواوين وصبغها بالصبغة العربية الكاملة ، وكان من أبرز من نهض بهذه المهمة فى تلك المرحلة صالح بن عبد الرحمن ، الذى كان يجيد الفارسية ، والذى أمره الحجاج « بنقل الدواوين إلى العربية فى سنة ثمان وسبعين » . (٢)

والحديث عن صالح بن عبد الرحمن يقتضينا الإشارة إلى دوره – الذى لا يقل خطورة عن دوره فى التعريب – فى تكوين ورعاية فيلق من الكتاب المحترفين ، سينهضون فيما بعد بأمور الدواوين فى شتى أصقاع الدولة الإسلامية ، ويوحى الجهشيارى بهذه الأستاذية التى يمثلها « صالح » حين يقول : « وكان عامة كتّاب العراق تلامذة لصالح » (٣) ، ومن هذه الكوكبة التى رعاها صالح تلمع أسماء المغيرة بن أبى قُرّة ، الذى كتب ليزيد بن المهلّب ، وقُحذُم بن أبى سُلَيْم ، وشَيْبة بن أيمن ، اللذين كتبا ليوسف بن عمر ، ومروان بن إياس كاتب خالد القسْرى ، وغيرهم .

أما الدور الرابع فى مسيرة النثر الكتابى لهذا العصر ، فيواكب – على وجه التقريب – خواتيم القرن الأول ، ويرتبط بالكتبة الوُعاظ بشكل خاص ، وفيه تزدهر الرسالة الوعظية والأسلوب الوعظى ازدهارا كبيرا ، ويقترن هذا الازدهار بنتاج كتّاب هم بالدرجة الأولى من ذوى البصيرة الدينية ، أمثال : غيلان الدمشقى ، وطاوس بن كيسان ، والحسن البصرى ، وعمر بن عبد العزيز .

---

(١) انظر الوزراء والكتاب – ص ٤٧ .
(٢) المصدر السابق – ص ٣٨ .
(٣) المصدر السابق – ص ٣٩ .

وللأخيرين بخاصة إسهام واضح فى نشر هذا الدور ، بل إنه ليمكن القول — دون مبالغة كبيرة — أن «الحسن» و«عمر» يمثلان طرفى المعادلة الكتابية فى هذا الدور ، الأول بكتبه فى النصيحة وتخطيط ملامح الإمام العادل ، والثانى برسائله إلى نوابه وعماله وجنده ، فى الحض على مراقبة النفس ورعاية الله فى أمور العباد ، وإن لم يجاوز أسلوباهما معا ما يتميز به النمط الوعظى من كثرة الاتكاء على الاقتباسات القرآنية ، والتمثل بأقوال الرسول (ص) وسير الصالحين ، ووفرة الاعتماد على صيغ الترغيب والترهيب ، والتذكير بالجنة والنار ، مع نَفَس دينى يغمر الرسالة غمرا .

وحتى هذا الحد كان أدب الكتابة العربى متسما بسمتين كُبريين ، لامناص من إعادة التذكير بهما ، الاعتدال فى حجم الرسالة ووسائلها الأدائية وأصباغها الجمالية ، والطابع العربى المحض فى مصادر ثقافة الكاتب وأدواته ، فقد كانت هذه المصادر — فى جملتها — تدين للتراث العربى بكل ما يزخر به ، شعرا وتاريخا ووقائع وأمثالا ، كما كانت هذه الأدوات تدين لفلسفة الفن العربى التى كانت تستخدم الأجناس النثرية — حتى هذه الحقبة — استخداما غائيا ، لا يستهدف جماليات الكلمة ، بقدر ما يستهدف سلامة التوصيل . وحتى إذا كان فى هذه الحقبة ، التى تستغرق معظم القرن الأول ، من مؤثرات أجنبية . فقد كانت مؤثرات عامة ، أولا ، ثم مؤثرات شكلية ، ثانيا ، ونقصد بهذه المؤثرات الشكلية ما يشبه تجليل الخطوط وتعظيم الرقاع وتفخيم المكاتبات ، وهى أمور عنى بها الوليد بن عبد الملك ، تأسيا بملوك الأعاجم ، ثم سرعان ما عدل عنها عمر بن عبد العزيز ، ولكنه كان عُدولا إلى حين .

ومع بدايات القرن الهجرى الثانى يبدأ الطور الحاسم فى مسيرة النثر الكتابى عبر هذه الفترة ، وهو الطور الذى واكبته أقلام سالم أبى العلاء ، وابنه عبد الله ، وهشام بن عبد الملك ، والذى تُوِّج بجهود عبد الحميد بن يحيي ، ذلك الكاتب الذى يعتبر نتاجه قمة ما وصل إليه الأدب المكتوب فى العصر الأموى .

وفى هذا الطور يتدخل التأثير الأجنبي فى الصنعة الكتابية تدخلا ملحوظا ، وهو تأثير بالرفد والإعانة ، وليس بالتأصيل والإنشاء ، ثم هو تأثير لا يقتصر على نافذة ثقافية واحدة ، بل تتعدد مساربه ، فجناح أتيح له أن يعرف اللغة اليونانية ، وأن يستمد من أعرافها الكتابية ، وعلى رأس هذا الجناح كان سالم أبو العلاء ، كاتب هشام بن عبد الملك ، الذى نقل بعض رسائل أرسطو إلى الإسكندر ، من اليونانية إلى العربية ، والذى خلّف رسائل فى عشرات الأوراق ، وإن تكن ضاعت جميعاً . .

وجناح آخر كان تأثره بأدبيّات الفارسية أوضح وأقوى ، وعلى رأس هذا الجناح كان عبد الحميد بن يحيي ، وصحيح أن توزيع خريطة المؤثرات لم يكن على هذا النحو من الحدّة والتميّز ، فقد تتشابك هذه المؤثرات فى رؤية الأديب الواحد ، كما تشابك التأثير اليونانى مع التأثير الفارسى لدى عبد الحميد، ويبدو أنّ اطلاعه على جماليات الفارسية كان مباشراً ، فقد أومأ الجاحظ إلى هذا حين قرن بين « الوسائل التى بأيدى الناس للفرس » وبعض الكاتبين الذين

يعد من بينهم عبد الحميد بن يحيي (١) ، هذا على حين أفاد - نعني عبد الحميد - من سالم - صديقه وزوج أخته - في الإلمام بشذرات من الكتابة اليونانية . وعلى أية حال ، ومن هذا النموذج أو ذاك ، يمكن القول إن تعدد الروافد الأجنبية الفاعلة في نثر هذه الفترة من مطالع القرن الهجرى الثانى ، كان حقيقة تصعب المماراة فيها .

ومن أبرز نتائج هذا التأثير ، ما تناولته الدراسة من شيوع ظاهرة الإطالة مواكبة لهذا الطور ، وقد رأينا بعض رسائل عبد الحميد تسترسل وتمتد حتى تمثل ما يشبه الأطروحة أو الكتاب الصغير ، ويشير صاحب « صبح الأعشى » إلى هذه الظاهرة واقترانها بعبد الحميد ابن يحيي . قائلا « إنه أطال الكتب وأطنب فيها ، حيث اقتضى الحال تطويلها والإطناب فيها ، حتى يقال إنه كتب كتاباً عن الخليفة جاء وقر جمل » (٢) .

وبغض النظر عن حجم المبالغة في العبارة الأخيرة - وهى مبالغة لا يعوزها الثقل والوضوح - فإن ظاهرة الطول لم تكن الوحيدة في مقام الحداثة . فقد « أطال عبد الحميد التحميدات في صدور الكتب » (٣) . ثم ما زال بهذه الفواتح من التحميد حتى أصبحت ضرباً مستقلا من الكتب يقال له « كتب التحميد » . هذا بالإضافة إلى أن روافد التأثير الأجنبي ، وبخاصة ما يرجع منها إلى أصول يونانية ،

---

(١) البيان والتبيين - نشر الخانجى - تحقيق هارون - جـ ٣ - ص ٢٩ .
(٢) صبح الأعشى جـ ٦ - ص ٣٩١ .
(٣) المصدر السابق - ص ٣٣٢ .

قد أعانت النثر العربى فى خواتيم الحقبة الأموية على الوصول بالبنية الكتابية إلى مستوى ملحوظ من التدرج والمنطقية ، الأمر الذى يتجلى بأوضح مظاهره فى مطوّلات الجيل الأخير ، وقد كانت هذه البنية المنطقية مقدمة للطفرة التى سيشهدها العصر العباسى فى مناهج التأليف الأدبى عند ابن المقفّع والجاحظ وسهل بن هارون وأضرابهم .

بَيْد أن الروافد المشار إليها ، مهما كان مداها وقيمتها : لا تنال مما صدّرنا به هذه الخاتمة من مقولة « عروبة الأصول الأولى » على وجه العموم ، قد يكون ثمة بعض الفلذات التى تسربت إلى الخلفية الحضارية والثقافية ، ولكن هذه الفلذات لم تصبح أنهاراً فنية مؤثرة إلا على مفرق القرنين ، ومن بعد ذلك كان الفيض من موجات التطور التى ترادفت على الفن النثرى المكتوب ، عبر تاريخه المديد .

وما نخال بحثنا هذا أكثر من خطوة متواضعة على درب ذلك التاريخ المديد ، وما أحوجها إلى خطوات تالية فى رصد المسيرة الطويلة لأدب الكتابة العربية .

* * *

فَهَارِس

أهم المصادر والمراجع

العربية والأجنبية

١ ـ ابن الجوزى .

سيرة عمر بن عبد العزيز ـ تصحيح محب الدين الخطيب ـ مطبعة المؤيد ـ مصر سنة ١٣٣١ هـ .

٢ ـ أبو إسحاق الحصرى القيروانى .

زهر الآداب ـ ضبط وتعليق الدكتور زكى مبارك ـ نشر المكتبة التجارية ـ القاهرة سنة ١٩٢٥ م .

٣ ـ أبو بكر الباقلانى .

إعجاز القرآن ـ تحقيق محمد عبد المنعم خفاجى ـ مطبعة صبيح ـ القاهرة سنة ١٩٥١ م .

٤ ـ أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى

تاريخ الرسل والملوك ، المعروف بتاريخ الطبرى ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار المعارف ـ مصر .

٥ ـ أبو العباس أحمد القلقشندى .

صبح الأعشى ـ طبعة المطبعة الأميرية ـ مصر سنة ١٩١٥ م .

٦ ـ أبو العباس محمد بن يزيد المبرد .

الكامل ـ مكتبة نهضة مصر ـ القاهرة (د . ت) .

٧ ـ أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشيارى .

الوزراء والكتاب ـ تحقيق مصطفى السقا وآخرين ـ القاهرة سنة ١٩٣٨ م .

٨ - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ .

البيان والتبيين - تحقيق وشرح عبد السلام هارون - مكتبة الخانجي - القاهرة سنة ١٩٧٥ م .

٩ - أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي .

العقد الفريد - نشرة محمود شاكر الكتبي - الطبعة الأولى - القاهرة سنة ١٩١٣ م .

١٠- « « « «

العقد الفريد - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة سنة ١٩٤٠ م .

١١- أبو الفرج الأصفهاني .

الأغاني - نشرة ساسي - مطبعة التقدم - مصر (د . ت .)

١٢- أبو الفرج محمد بن إسحاق الوراق ، المعروف بابن النديم .

الفهرست - تحقيق جوستاف فلوجل - ليبزج سنة ١٨٧١ م

١٣- أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري .

الإمامة والسياسة - نشر المكتبة التجارية - مصر (د . ت)

١٤- أبو هلال العسكري .

كتاب الصناعتين - الطبعة الأولى - الآستانة - سنة ١٣٢٠ هـ .

١٥- أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم .

كتاب الخراج - نشر المكتبة السلفية - القاهرة سنة ١٣٩٢ هـ .

١٦- إحسان النص (الدكتور) .

الخطابة العربية في عصرها الذهبي - دار المعارف - مصر سنة ١٩١٣ .

١٧- أحمد أمين .

فجر الإسلام - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة سنة ١٩٤٥ م .

١٨- أحمد الحوفى (الدكتور) .

أدب السياسة - الطبعة الثالثة - دار نهضة مصر - القاهرة .

١٩- أحمد الحوفى (الدكتور) .

فن الخطابة - دار نهضة مصر . القاهرة (د . ت .)

٢٠- أحمد زكي صفوت .

جمهرة رسائل العرب - الطبعة الأولى - مصر سنة ١٩٣٧ م .

٢١- أدونيس .

زمن الشعر - بيروت سنة ١٩٧٨ م .

٢٢- أرسطو .

الخطابة - ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي - بغداد سنة ١٩٨٠ م .

٢٣- أنيس المقدسي .

تطور الأساليب النثرية - بيروت سنة ١٩٣٦ م :

٢٤- برنارد لويس .

العرب فى التاريخ - تعريب نبيه أمين فارس ، محمود يوسف زايد - بيروت سنة ١٩٥٤ م :

٢٥- تقى الدين بن حجة الحموى .

ثمرات الأوراق - المطبعة الوهبية - مصر سنة ١٣٠٠ هـ .

٢٦ـ تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد ، المعروف بالمقريزى.
كتاب الخطط ، المسمى بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار — مصر سنة ١٣٢٤ هـ .

٢٧ـ جمال الدين بن نباتة .
سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون — تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم — دار الفكر العربي — القاهرة سنة ١٩٦٤ م .

٢٨ـ حسين نصار (الدكتور) .
نشأة التدوين التاريخي عند العرب — مكتبة النهضة المصرية — القاهرة (د . ت .)

٢٩ـ سهير القلماوى (الدكتورة)
أدب الخوارج في العصر الأموى — لجنة التأليف والترجمة والنشر — القاهرة سنة ١٩٤٥ م .

٣٠ـ شهاب الدين الحلبي .
حسن التوسل إلى صناعة الترسل — نشرة أمين هندية — مصر سنة ١٣١٥ هـ .

٣١ـ شوقي ضيف (الدكتور)
الفن ومذاهبه في النثر العربي — الطبعة الخامسة — دار المعارف — مصر .

٣٢ـ طه حسين (الدكتور) .
المجموعة الكاملة — دار الكتاب اللبناني — بيروت سنة ١٩٧٣ م .

٣٣ـ عبد الحكيم بلبع (الدكتور) .
النثر الفني وأثر الجاحظ فيه — مكتبة الأنجلو — القاهرة سنة ١٩٥٥ م .

٣٤- عبد القاهر البغدادى .

الفرق بين الفرق - تحقيق محمد بدر - مطبعة المعارف - مصر سنة ١٩١٠ م .

٣٥- عز الدين خالد ، الشهير بابن أبى الحديد .

شرح نهج البلاغة - الطبعة الثانية - بيروت سنة ١٩٥٦ م .

٣٦- على حسب الله .

أصول التشريع الإسلامى - الطبعة السادسة - القاهرة سنة ١٩٨٢م .

٣٧- على عشرى زايد (الدكتور)

استدعاء الشخصيات التراثية فى الشعر العربى المعاصر - طرابلس - ليبيا سنة ١٩٧٨ م .

٣٨-

الفكر العربى المعاصر - العددان ٦ ، ٧ - بيروت سنة ١٩٨٠ م .

٣٩- فون كريمر .

الحضارة الإسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية - تعريب الدكتور مصطفى بدر - دار الفكر العربى - القاهرة (د . ت .)

٤٠- المسعودى .

مروج الذهب - المطبعة البهية - القاهرة سنة ١٣٦٤ هـ .

٤١- نقولا فياض (الدكتور) .

الخطابة - دار الهلال سنة ١٩٣٠ م .

٤٢- يوليوس فلهوزن .

أحزاب المعارضة السياسية الدينية فى صدر الإسلام - ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى - القاهرة سنة ١٩٥٨م .

المراجع الأجنبية

Filshtinsky, J. M., Arabic Classical Literature, Moscow, 1965. – ٤٣

Rene Wellek and Austin Warren., Theory of Literature, London. 1954. – ٤٤

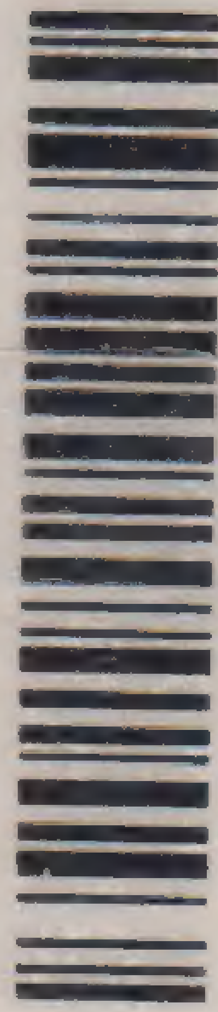
Torgenev, A., J., – ٤٥

Letters and Daydooks, Moscow, 1964.

Jan Watt; – ٤٦

The Rise of the Novel, Penguin Books, 1963.

محتويات الكتاب


Bibliotheca Alexandrina
0961379